أضواء على

شخصيات إسلامية متميزة

بقلم

علي القاضي



الطبعة الأولى

ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ - يونيو ٢٠٠٤ م

مقدمة

مرت فترات كثيرة وأنا أقرأ عن شخصيات إسلامية كان لها تأثيرها في نشر الدعوة الإسلامية وفي تبصير الناس بحقيقة الإسلام وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي الدفاع عن الإسلام في أحرج فتراته .

ورأيت أن عددا كبيرا من هذه الشخصيات غير معروف حتى من بعض المتخصصين في التاريخ ولذلك بدأت أكتب في عدد من المجلات في الوطن العربي عن بعض هذه الشخصيات حتى يعرف شبابنا هذه الشخصيات الرائعة التي وهبت نفسها ومالها لله تعالى حتى يجعلوهم قدوة لهم .

ثم رأيت أن أجمع بعض هذه الشخصيات في كتاب يمكن أن يقرأه الشباب المسلم ، وقد بدأت بعمر بن الخطاب ﷺ لأنه الصحابي الوحيد بل والقائد الوحيد في تاريخ الإسلام الذي اختاره مؤلف كتاب (المائة الأوائل) - وهو مؤلّف غير عربي وغير مسلم - ليكون أحدهم ، فرأيت أن أبين للشباب سبب اختياره من بين المائة الأوائل .

كما أنني ختمت هذا الكتاب بالشيخ الغزالي رحمه الله تعالى للصلة الخاصة التي كانت بيني وبينه والتي جعلتني أعرفه بصورة أكثر وضوحا في أخلاقه الإسلامية المتينة ، وفي وقوفه شامخا أمام كل العقبات التي صادفته طوال حياته ، إلى جانب عدم الانحناء لأي شيء في هذه الحياة مهما كانت الضغوط التي كانت تقابله .

وأرجو الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير للإسلام والمسلمين ، وأن يتقبل منا وأن يقبلنا إنه نعم المولى ونعم النصير .

علي القاضي

مايكل هارت مؤلف كتاب المائة الأوائل عالم فلكي رياضي كان يعمل في هيئة الفضاء الأمريكية وكانت متعته الأولى دراسة التاريخ .

ويلاحظ أن هذا المؤلف لم يختر من المسلمين على مدى التاريخ إلا شخصيتين هما (محمد رسول الله ﷺ ، وعمر بن الخطاب ﷺ) مع أن التاريخ الإسلامي مملوء بشخصيات فذة في جميع الميادين وتنطبق عليهم الشروط التي وضعها مايكل هارت ، ولكن المؤلف معذور لأنه غير مسلم ولأن جهوده فردية، وقد درس نحو عشرين ألف شخصية حتى وصل إلى هذا الرأي الذي نشره في هذا الكتاب ، ولا نستطيع أن نحمل هذا الرجل أكثر من ذلك .

وهناك ملحوظة أخرى وهي أن المؤلف قد جعل الرسول ﷺ الشخصية الأولى، كما جعل عمر ﷺ الشخصية الـ ٥١، ومن وجهة نظرنا كمسلمين نتبين الفرق الواضح في العظمة بين رسول الله ﷺ وبين عمر ﷺ، ومن هنا كان عمر أحد أتباع محمد ﷺ الذين رباهم وجعل منهم شخصيات فذة، ولولا الإسلام ما كان عمر إلا شخصية عادية.

يقول مايكل هارت: بعد وفاة محمد ﷺ كان عمر الشخصية التي نشرت الإسلام فبغير هذه الغزوات الشريفة ما كان من الممكن أن ينتشر الإسلام في هذه المساحة الشاسعة من الأرض، ومعظم البلاد التي غزتها جيوش المسلمين ظلت عربية إسلامية حتى يومنا هذا.

صحيح أن الفضل أولا وأخيرا للرسول ﷺ ولكن كثيرا من الفضل يعود إلى عمر بن الخطاب بعد ذلك ، فعمر ساعد بذكائه وعبقريته على نشر الإسلام وتمكينه في البلاد الأخرى ، ففي فترة خلافة عمر التي استمرت عشر سنوات تحققت الفتوحات الكبرى للإسلام فغزت جيوش المسلمين سوريا وفلسطين وكانت في ذلك الوقت جزءا من الإمبراطورية البيزنطية ، وفي معركة اليرموك سنة ٦٣٦م انتصر العرب على قوات بيزنطة وسقطت دمشق في نفس السنة وبعد سنتين سقطت القدس أيضا ، وفي سنة ٦٣٩م غزت الجيوش العربية مصر وكانت تحت سيطرة الدولة البيزنطية أيضا ، وفي خلال ثلاث سنوات تم للعرب الاستيلاء على مصر ، وفي سنة ٦٤٢م أصبحت العراق كلها تحت السيطرة التامة لجيوش المسلمين واستولت عليها الجيوش الإسلامية بعد

المعركة الفاصلة في نهاوند سنة ٦٤٢م، وكان عمر خليفة حكيما وسياسيا بارعا ولم يفرض الإسلام على أحد بالقوة.

وربما بدا غريبا أن شخصية عمر بن الخطاب ليست معروفة لدى الغرب مثل شخصيات شارلمان أو يوليوس قيصر ، ومع ذلك فقد استحق هذا المكان الرفيع ، ولكن الغزوات التي شنتها جيوشه ومدى ما تركته من أثر في التاريخ أخطر بكثير مما تركه يوليوس قيصر وشارلمان وغيرهم .

وقد رأى عمر أن تظل قوات المسلمين بعيدة عن المدن تعيش في الثكنات ، وقد فرض عمر على المسيحيين الجزية إذا لم يعتنقوا الإسلام والزكاة إذا أسلموا وهم أحرار في ذلك ، ومن هنا يظهر أن حروب المسلمين لم تفرض الإسلام بالقوة .

ويلاحظ أن مفهوم الجهاد في الإسلام غير واضح في ذهن مايكل هارت ولذلك فإنه يقول : إن حروب العرب كانت حروبا قومية _ مع أنها حروب إسلامية تسير على منهج الإسلام _ والإسلام يقول (لا إكراه في الدين) ويقول (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

الفتوحات الإسلامية :

ثم يتابع المؤلف كلامه في أسباب اختيار عمر بن الخطاب ليكون أحد الخالدين فيقول : لقد انتصرت القوات العربية في عهد عمر في معركة القادسية واستولت الجيوش الإسلامية على بلاد فارس بعد المعركة الفاصلة في نهاوند وغيرها .

صمود المسلمين :

ويتابع المؤلف حديثه عن صمود المسلمين فيقول: وكما أن هذه الانتصارات كانت هامة فإن صمود المسلمين في البلاد التي استولوا عليها كانت شيئا أكثر أهمية، وعلى الرغم من أن إيران قد تحولت إلى الإسلام فإنها قد استقلت وأصبحت مسلمة أيضا وقد تحولت سوريا والعراق ومصر جميعها إلى الإسلام وازدادت عروبة بمرور الوقت .

تحية إلى الباحث الأمريكي مايكل هارت على ما بذل من مجهود وما حاول من إنصاف وتطبيق للمقاييس التي وضعها، وقد قامت ضده اعتراضات على موقفه هذا ولكنه لم يعبأ بذلك لأنه حاول أن يكون منصفا ومطبقا للمقاييس التي وضعها ويطبقها من وجهة نظره .

من أبطال رمضان (المقداد بن عمرو)

كان يسمى في الجاهلية المقداد بن الأسود لأنه حالف الأسود بن عبد يغوث فتبناه فصار يدعى المقداد بن الأسود حتى نزل قوله تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) (الأحزاب:٥) ، فنودي باسمه واسم أبيه (المقداد بن عمرو) ، كان المقداد من الذين دخلوا في الإسلام مبكرين وهو سابع سبعة جاهروا بإسلامهم وتحمل في سبيل ذلك ما تحمل من مشركي قريش في صبر وشجاعة .

يوم بدر:

كانت غزوة بدر في شهر رمضان من العام الثاني من الهجرة - وهي أول معركة في الإسلام - فقد خرج المسلمون لأخذ قافلة قريش ولكن القافلة نجت ولم يبق أمام المسلمين إلا ملاقاة جيش الكفار الذي جاء لإنقاذ القافلة ، وهم لم يكونوا مستعدين للمعركة من حيث العدد أو العدة ترى ماذا يفعلون ؟

إن المعاهدة التي كانت بين النبي ﷺ وبين الأنصار تنص على أن يدافعوا عنه وعن الإسلام في داخل المدينة - ولكنهم الآن خارج المدينة - ونظر الرسول ﷺ حوله فوجد المهاجرين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ووجد الأنصار الذين ربطوا حاضرهم ومستقبلهم بالإسلام ، ومع ذلك فقد أحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف حتى يبصروا ماذا يفعلون ؟ .

لقد أصبح المسلمون أمام امتحان عسير في هذا الموقف واستشار رسول الله ﷺ أصحابه فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : " يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك ما قاله بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه " فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له ، وأثار هذا الكلام الحماسة في نفوس المسلمين جميع أفراد الجيش ، وقال النبي ﷺ بعد ذلك أشيروا علي أيها الناس فقال له سعد بن معاذ الأنصاري : لكأنك تريدنا يا رسول الله ، قال : نعم ، فقال : يا رسول الله لقد آمنا بك و صدقناك و شهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا فامض يا رسول الله لما

أردت فنحن معك والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، فامتلأ قلب النبي ﷺ بشرا وقال: سيروا وأبشروا.

والتقى الجيشان في صبيحة يوم السابع عشر من رمضان وكان فرسان المسلمين يومئذ ثلاثة هم (المقداد بن عمرو ، ومرثد بن أبي مرثد ، والزبير بن العوام) أما باقي أفراد الجيش فكانوا مشاة أو راكبي إبل ، وقد انطلق جنود المسلمين في مواجهة جيش العدو الذي يزيد عنهم عددا وعدة وانطلقوا بكل قوة يجاهدون في سبيل الله ويدافعون عن دينه ، وزحف جيش المسلمين على الكفار وانجلت المعركة عن فوز ساحق للمسلمين في أول لقاء وانتصروا عليهم انتصارا رائعا حتى سميت هذه الغزوة بغزوة بدر الكبرى لما لها من آثار واضحة في مواجهة المشركين .

حياة المقداد :

كان المقداد بن عمرو عاقلا محبا لله ورسوله وقد ولاه النبي ﷺ إحدى الإمارات فلما رجع سأله النبي ﷺ كيف وجدت الإمارة ؟ ، فأجابه في صدق بالغ : (لقد جعلتني انظر إلى نفسي كما لو كنت فوق الناس وهم جميعا دوني والذي بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين بعد اليوم أبدا) ، وكان دائم الذكر لحديث النبي ﷺ (إن السعيد لمن جنب الفتن) ، ومن الأحاديث الطريفة التي يرويها بعض أصدقاء المقداد أنه قال: (جلسنا إلى المقداد بن عمرو يوما فمر به رجل فقال مخاطبا المقداد: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا الرسول ﷺ لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت ، فأقبل عليه المقداد وقال : ما يحمل أحدكم أن يتمنى مشهدا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يصير إليه ؟ والله لقد عاصر رسول الله ﷺ أقواما أكبهم الله عز وجل على مناخرهم في النار أولا تحمدون الله الذي جنبكم مثل بلائهم وأخرجكم مؤمنين بربكم) ، لقد ملأ الإيمان قلب المقداد ولذلك فإنه كان يلازم النبي ﷺ ما استطاع إلى ذلك سبيلا ولم يكن يسمع هيا إلا ويكون المقداد في المقدمة واقفا على باب رسول الله ﷺ راكبا فرسه حاملا سيفه .

وهذا مثل من أمثلة البطولات الإسلامية يمكن لشبابنا أن يتخذوه قدوة لهم في حبهم لدينهم ودفاعهم عنه وفهمهم لدقائق الأمور .

نموذج رائع للدعاة (مصعب بن عمير)

في عصرنا الحاضر نجد أن الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى نموذج يتميز بصفات خاصة تجعل الناس يقبلون عليه ويستمعون إلى ما يقول لأنه يؤمن إيمانا صادقا لا يزعزعه شيء وإلى أنه لا يبتغي إلا رضاء الله سبحانه وتعالى ولأنه هادئ الطبع يتحمل ويتحمل ولا يهمه إلا أن ينجح في دعوته وبخاصة حين تكون دعوته محاطة بالعقبات والأشواك من كل جانب.

شاب مرفه :

مصعب بن عمير يمثل هذا النموذج الرائع للدعاة إلى الله تعالى فقد نشأ في بيت شرف وسيادة وغنى في مكة فهو من بني عبد الدار وأبوه عمير رجل قوي وغني النفس والمال وأمه خناس من أثرياء النساء في مكة وكان مصعب حاد الذكاء شديد الحيوية والنشاط فكان له مكانته الخاصة عند والديه يرعيانه رعاية خاصة فعاش عيشة الشباب المدلل الذي تجاب له كل مطالبه كان يلبس أحسن الثياب وأغلاها وكان يتعطر كثيرا حتى قيل عنه إنه أعطر أهل مكة وأجملهم وأرقهم يلبس الحضرمي من النعال ويمر بين أحياء مكة فيسترعى منظره ساكنيها وكان يقول عنه القائل : ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير.

مصعب المسلم :

ويلتقي مصعب بالنبي ﷺ ويستمع إلى دعوته ويدخل الإيمان قلبه وهو في دار الأرقم ويدخل الإسلام ويتغير مصعب في كل شيء ، لقد أحس بأنه أصبح شيئا آخر كما أصبحت الدنيا لا تساوي شيئا ، إن أهم شيء في حياته أن يكون مسلما كاملا.

لقد كتم مصعب - في بداية الأمر- إيمانه عن كل الناس ، وكان يلتقي بالنبي ﷺ في دار الأرقم يتلقى عنه ويتدارس مع إخوانه ، ولكن الأم الذكية لمحت على ابنها تغيرا شديدا فقد أصبح يفكر كثيرا ، ترى ما الذي يفكر فيه وهو الشاب الذي يجد كل شيء طوع يديه ؟ ، حتى النعيم الذي كان فيه تركه وراء ظهره فلم يهتم بالزى ولا بالعطور ولا بأي شيء مما كان يهتم به من قبل ، وكانت تسأل لتعرف ولتطمئن على ابنها ولكن ابنها لم يجب على أسئلتها فيزيدها هذا قلقا ، ولكن رجلا من قريش " عثمان بن طلحة النهدي " بصر بمصعب يصلي فأخبر أمه بذلك ففوجئت الأم بالخبر - ترى

لماذا يفعل هذا ؟ وهو لا ينقصه شيء من مباهج الحياة الدنيا - لقد وقع الخبر عليها كالصاعقة وزاد من همومها أن الخبر شاع في قريش ، وقالوا : إن مصعب بن عمير قد صبأ عن دين الآباء والأجداد وآمن بدين محمد ﷺ .

ويدأ مصعب يلاقي ما يلاقي بسبب إيمانه بدعوة محمد ﷺ، لقد حبسه أهله وأوثقوه فلم يزده ذلك إلا إصرارا وإيمانا بالدين الجديد وظل محبوسا حتى أذن الله تعالى للمسلمين المستضعفين في مكة بالهجرة إلى الحبشة فاستطاع أن يهاجر فأمن على نفسه ولكن شظف العيش كان شديدا فعاش في فقر مدقع ثم عاد مع من عاد إلى مكة، وأقبل ذات يوم على النبي ﷺ وصحبه وحياهم بتحية الإسلام فردوها بأحسن منها ثم نظر إليه النبي ﷺ وعليه جلد كبش قد تنطق به فقال : " انظروا إلى هذا الفتى الذي نور الله قلبه بالإيمان لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلى ما ترون " (رواه الترمذي) .

مصعب الداعية :

وبعد انتهاء بيعة العقبة الأولى طلب الأنصار من النبي ﷺ أن يرسل معهم من يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين وينشر الإسلام في المدينة فوقع الاختيار على مصعب بن عمير ونزل ضيفا على أسعد بن زرارة ، وكان يأتي الأنصار في دورهم وقبائلهم فيدعوهم إلى الإسلام ويقرأ عليهم القرآن بصوت خاشع تطمئن إليه النفوس وتخشع له القلوب حتى انتشر الإسلام بحيث لم يبق بيت من بيوت الأنصار لم يدخله الإسلام .

ولم يكن الأمر سهلا ؛ بل إنه لقي بعض العقبات ولكنه بحكمته وهدوء أعصابه استطاع أن يتغلب على ما قابله ، ومن ذلك ما جاء في البداية والنهاية : (كان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطا من حوائط بني ظفر فجلسا في الحائط " البستان " واجتمع إليهما رجال ممن أسلموا وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير يومئذ من بني عبد الأشهل وكلاهما مشرك على دين قومه ، فقال سعد لأسيد : لا أبا لك انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانههما أن يأتيا ديارنا ، فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه ، فوقف عليهما متشمتا ثم قال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة ، قال مصعب لأسيد في هدوء: أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته وإن كرهته كف عنك ما تكره ، قال : أنصت ثم ركز حربته وجلس ، فكلمه مصعب

بالإسلام وقرأ عليه القرآن ، قال مصعب : والله لقد عرفنا الإسلام في إشراقة وجهه وتسهله قبل أن يتكلم ، فقال : ما أحسن هذا الكلام وأجمله كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين ؟ ، قالا : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ، ففعل ما طلبا إليه ثم قال لهما : إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف أحد من قومه وسأرسله إليكما إنه سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي قال سعد ما فعلت؟ قال : كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت وقد حدثني أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك ... فقام سعد مغضبا مبادرا مخوفا للذي ذكر له من بني حارثة وأخذ الحربة في يده ثم قال : والله ما أراك أغنيت عني شيئا ، ثم خرج إليهما سعد فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيد إنما أراد أن يسمع منهما فوقف متشمتا ثم قال لأسعد بن زرارة : والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني أتغشانا في دارنا بما نكره ؟ ، قال مصعب : أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرا رغبت فيه قبلته وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ، قال سعد : أنصفت ثم ركز الحربة وجلس ، وعرض مصعب عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن ، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف : (حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم أفنضرب عنكم الذكر صفحا إن كنتم قوما مسرفين وكم أرسلنا من نبي في الأولين) فعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله ، ثم قال سعد لهما كيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين ؟ ، قالا : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ثم كانت شهادتا الحق وقد أخذ حربته بعد أن فعل ما أشارا به ، فأقبل عائدا إلى نادي قومه فلما رآه قومه مقبلا قالوا : نحلف بالله لقد عاد إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم وقف داعيا للإسلام ويقول : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ ، قالوا سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، واجتمع مصعب وأسعد بن زرارة وسعد بن معاذ في منزل أسعد وأخذوا يدعون إلى الإسلام حتى فشا في يثرب رجالا ونساء) .

تقرير مصعب :

انقضت السنة الأولى في المدينة ومصعب يدعوا إلى دين الله ثم خرج الحجيج من الأوس والخزرج إلى مكة وخرج معهم مصعب بن عمير ورافق رحلته سعد بن زرارة ، فقدم مكة فجاء منزل رسول الله ﷺ ليقدم له تقريره عن سير الدعوة في المدينة ولم يقرب منزل والديه فجعل يخبر الرسول ﷺ عن الأنصار وسرعة انضمامهم إلى ركب الدعوة الإسلامية ويبشره بمستقبل هذا الدين في المدينة فسر النبي ﷺ بكل ما أخبره ..

ويلغ أم مصعب أنه قدم إلى مكة فأرسلت إليه تعتب عليه في شدة وتقول : أتقدم بلد أمك فيه ولا تبدأ بها ؟ ، فأجابها إجابة المؤمن الواثق بدينه وبرسالة ربه يقول : يا آماه وما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله .

وأرادت أمه حبسه مرة أخرى كما كانت تفعل معه قبل الهجرة، فقال لها في حزم: لئن حبستني لأحرصن على قتل من يتعرض لي، قالت: اذهب لشأنك وجعلت تبكي، فقال مصعب: يا أماه إني لك ناصح وعليك شفيق فاشهدي أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فأقسمت بما كانت عليه تقول : لا أدخل دينك يا مصعب فأزري برأيي ويضعف عقلي ولكني سأدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني .

وأقام مصعب مع الرسول ﷺ بمكة بقية ذي الحجة والمحرم و صفر ثم هاجر إلى المدينة ثانية وذلك لهلال شهر ربيع الأول قبل مقدم رسول الله ﷺ باثنتي عشرة ليلة .

لقد كان مصعب بن عمير أول المهاجرين إلى المدينة وكان الداعية الإسلامي الذي يفهم الدعوة وأسلوبها المقنع الهادئ ، يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة فكان هذا النجاح الرائع في مهمته .

وهكذا يكون مصعب أنموذجا للدعاة اللذين نحتاج إليهم في عصرنا الحاضر في كل مجتمع من مجتمعات الدنيا حتى يقتنع الناس بالإسلام ويدخلوا في دين الله أفواجا.

أمنيات :

يروي لنا التاريخ أن أربعة اجتمعوا في الحرب - على عهد معاوية - وتمنى كل منهم أمنية وهؤلاء الأربعة هم : عبد الله بن الزبير وأخواه عروه ومصعب وعبد الملك بن مروان .

قال عبد الله بن الزبير : أتمنى أن أنال الخلافة وأملك الحرمين ، وقال عبد الملك بن مروان : أتمنى أن أقعد مقعد معاوية وأحكم الأرض ، وقال مصعب بن الزبير : وأنا أتمنى أن أحكم العراقيين وأتزوج عقيلتي قريش وأجمل جميلات العصر سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة ، قال عروة ابن الزبير: أنا لست في شيء من ذلك أنا أتمنى أن أكون عالما وأن أدخل الجنة .

وكأنما كانت أبواب السماء مفتوحة فلم تمض إلا سنوات حتى تحقق لكل من الثلاثة الأُوَل ما تمناه ، فمصعب حكم العراقيين وتزوج العقيلتين ، وعبد الله بويع بالخلافة وكان له الحجاز والعراق ومصر وأطراف الشام وكاد أن يدخل دمشق ويتم له الأمر لولا أنه لم يكن بارعا في السياسة براعته في الحرب فقضى شهيدا ، وعاد الأمر إلى عبد الملك الذي حكم جميع بلاد المسلمين وكان يقول بعد ذلك من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة .

عروة بن الزبير :

هو عروة بن الزبير بن العوام كان رجل علم وورع فلم يشترك في المشكلات السياسية ولا العسكرية ، كان أحد الفقهاء السبعة في المدينة ومما يحكى عنه أنه كان يقرأ ربع القرآن كل ليلة يقوم به الليل فما تركه إلا ليلة واحدة لإجراء عملية جراحية بترت فيها ساقه ، ثم عاد إلى القيام من الليلة التالية ، وكان له بستان نخيل فإذا جاء أيام الرطب ثقب ثقبا في بستانه فيدخل الناس فيأكلون ويحملون ما يريدون ، وكان عروة إذا دخل البستان قرأ : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ الكهف .

ضيف الخليفة :

ذهب عروة إلى دمشق ونزل ضيفا على الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كان يحبه لأنه نأى بنفسه عن مشكلات السياسة والحكم ، لقد كان ضيف الخليفة مريضا فاعتنى به وحشد له الأطباء الذين جاءوا من كل مكان وحملوا معهم علمهم وتجاربهم وأدواتهم ، لقد كان الداء في رجل عروة وقرر الأطباء أنه لا بد من قطع رجله وجزع الناس وجزع الخليفة وحاولوا ولكن الأطباء قالوا إن هذا هو الحل الوحيد .

عملية جراحية :

نحن الآن في سنة ست وثمانين للهجرة فكيف كانت تجرى العمليات الجراحية في ذلك الوقت ؟ وكيف يخدرون المريض ؟ لقد عرضوا على عروة الخمر ليسكر فلا يحس بآلام القطع فأبى وقال : لا أستعين على قدر الله بمعصية الله فجاءوا له بأربعة رجال أشداء ، فقال : من هؤلاء ؟ قال رجال يمسكون بك فإنا نخاف ألا يمكنك الألم من الثبات ، فقال : أرجو أن أريحكم من أمري و ذكر لهم طريقة لم تكن في الحسبان ، قال لهم : إني سأدخل في الصلاة فإذا رأيتموني استغرقت فيها فشأنكم ، ومعنى ذلك أنه حين يستغرق في الصلاة لا يحس بشيء مما يجري حوله بل لا يحس شيئا مما يجري بجسمه ، وحين رأوه قد استغرق في صلاته بدأت العملية طبقا لأصول الجراحة التي كانت معروفة في ذلك الوقت ... قطعوا اللحم بالسكين المحمى بالنار - وهذا هو أسلوب التعقيم المستعمل في هذه الأيام - حتى إذا بلغوه نشروه بالمنشار وهو يهلل ويكبر ويسبح ويحمد ثم عهدوا إلى تعقيم رجله موضع العملية بطريقتهم التي كانوا لا يعرفون غيرها ، حموا الزيت في تعارف الحديد حتى إذا غلي كووه بها فأغمي عليه.

الخليفة يحضر إجراء العملية :

لم يستطع الخليفة أن يبقى بعيدا عن العملية ، لقد حضرها إكراما لهذا العالم الجليل ولكنه لم يستطع أن يجلس بحيث ينظر فانتحى ناحيته فلما شم رائحة الزيت علم أن العملية قد انتهت ، فلما أفاق الشيخ من غيبته رأى القدم في أيديهم فأخذها وقبلها ، لقد كانت قدمه قطعة منه فصارت جزءا بعيدا عنه فلم يملك نفسه أن قال أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط ، والخليفة يرى كل هذا ويتألم ولكنه ماذا يصنع إنه لم يقصر في شيء وهذه إرادة الله ولا راد لقضائه ، ثم

إن الشيخ قد خرج من حب الدنيا بجاهها ومالها فكان أغنى الناس لأنه زهد في كل شيء .

مصيبة أخرى :

ولم يمض وقت طويل حتى جاءه نبأ قاس على نفسه ونفس كل إنسان ابنه محمد الشاب العالم الصالح الذي كان أمل أبيه وأمل محبيه وعارفيه دخل الإسطبل ليخرج فرسا له فيرمحه فيموت لساعته، هكذا محنة قاسية إثر محنة قاسية ، وفي الشدائد يعرف الإيمان وكما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) ، لقد تماسك الشيخ واحتمل واحتسب أجره عند الله، وما زاد على أن قال : (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) .

من نظر إلى مصيبة غيره :

يقولون في الأمثال العامة من نظر إلي مصيبة غيره هانت عليه مصيبته ، وقد كان الخليفة حريصا على أن يخفف عن عروة مصائبه ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

قدم على الوليد من الغد وفد من بني عبس وفيهم رجل ضرير ، فسأله الوليد : ما حالك ؟ ، فقال : يا أمير المؤمنين بت ليلة في بطن واد ولا أعلم بمن يزيد ماله على مالي فطرقنا سيل فذهب بما كان لي من أهل وولد ومال غير بعير و صبي مولود وكان البعير صعبا فوضعت الصبي واتبعت البعير فلم أجاوزه إلا قليلا حتى سمعت صيحة ابني ورأيت رأسه في فم الذئب وهو يأكله فلحقت بالبعير لأحبسه فرماني فذهب ببصري ، فقال الخليفة : أرسلوه إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أشد منه مصابا ، واستمع عروة إلى حديث الضيف فقال مناجيا ربه [اللهم إن كنت أخذت طرفا لقد أبقيت أطرافا وإن كنت أخذت ولدا لقد تركت أولادا ولك الحمد على ما أعطيت وما أخذت] .

العودة إلى المدينة :

وعاد عروة إلى المدينة فلم يبق له في دمشق حاجة ، لقد أجرى العملية فقطعت رجله وفقد ابنه بعد ذلك ، ولم يكن له بد أن يعود إلى وطنه الحبيب إلى المدينة التي بها قبر النبي ﷺ فسيجد فيها الأنس والراحة والاطمئنان بعد هذه الرحلة الشاقة ، وتلقاه

الناس يعزونه ليخففوا عنه فكان ابلغ ما سمع قول إبراهيم بن محمد بن طلحة " والله ما بك حاجة إلى السعي ولا أرب في السباق ولقد أبقى لنا الله منك ما نحن أحوج إليه علمك ورأيك وفضلك وإن الله ولي ثوابك والضمين بحسابك " .

وفاته بالمدينة :

وفي المدينة توفى ، وفي وادي العقيق دفن وسميت بئر باسمه وأصبحت بئر عروة موردا للناس يتزودون من ماءها في أسفارهم وكان ماؤها يحمل من المدينة إلى الوليد في دمشق والي الرشيد في الرقة يغلى ثم يجعل في قوارير ويسير بها الناس وقد نظم فيها الشعراء دواوين من الشعر ، وحتى اليوم لا يزال الناس يزورونها ويشربون من مائها ويذكرون عروة العالم الصابر الزاهد الذي نرجو الله أن يجعله من أهل الجنة .

نشأته :

أصله من نيسابور وولد في ديار بكر وذهب أبوه إلى المغرب في الحملة التي جردها المنصور للقضاء على ثورة البرابرة ، ولذلك فقد تربى في تونس وأخذ العلم عن علمائها ثم عزم على الرحيل إلى المشرق ليزداد علما، والشرق في ذلك الوقت كان ميدان الثقافة والعلم في جميع إعصاره وكان الناس يأتون إليه ليأخذوا عن علمائه ثم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم أو لا يعودون ، كما يحدث الآن بالنسبة لأبنائنا الذين يذهبون إلى أوربا وأمريكا .

اجتمع أهل تونس عام ١٧٢هـ لوداع الشاب أسد بن الفرات الذي كان يبلغ الثلاثين من عمره وهو ذاهب إلى بلاد المشرق ، ولم تكن المواصلات سهلة في ذلك الوقت فلا سيارات ولا طائرات ولا قطارات ولا بواخر سريعة ومن هنا كانت المشقة كبيرة والزمن طويل حتى يصل الإنسان إلى ما يريد .

جامعة المدينة :

كانت المدينة مركزا للعلم في ذلك الوقت أستاذها الأكبر الإمام مالك صاحب المذهب المعروف ، وفي المسجد النبوي الذي كان مركزا للدراسات العلمية التقى أسد بن الفرات بالإمام مالك ولزمه ، وكانت طريقة الإمام مالك أن يستمع تلاميذه له وحين يناقشون لا يفرضون الفروض ولا يقدرون الوقائع التي لم تقع بل يسألون عما وقع من الأحداث ولا يلحون في الأسئلة ، لكن أسد بن الفرات جاء من بلاد بعيدة ليتعلم ما لم يجده في بلاده وكان جريئا فكان يكثر من الأسئلة ، وانتهز تلاميذ الإمام مالك هذه الفرصة فكانوا يحملون أسد بن الفرات أسئلتهم ليلقيها على الإمام مالك إلى أن قال له الإمام إن كان كذا كان كذا سلسلة بنت سلسلة إن أردت هذا نسكنك بالعراق ، صحب الإمام مالكا سنتين ثم عزم بناء على نصيحة إمامه السفر إلى العراق وقال له مودعا وموصيا : [أوصيك بتقوى الله والقرآن والنصيحة للناس] .

جامعة بغداد:

وصل صاحبنا إلى بغداد ولم يلتق بالإمام أبو خليفة إمام جامعة بغداد التي تميل إلى النظر الفعلي وفرض الفروض وتقدير الوقائع قبل وقوعها ووضع الأحكام لها ، لقد

توفى أبو خليفة بعد أن ترك جماعة من تلاميذه العلماء. على رأسهم أبو يوسف الذي شغل منصب قاضي القضاة ، محمد بن الحسن الشيباني الذي أخذ مكان أستاذه في التدريس والبحث وانتهت إليه رياسة العلماء. وعنه أخذ الشافعي واحمد بن حنبل .

درس خاص :

بدأ أسد بن الفرات في الانضمام إلى تلاميذ محمد بن الحسن الشيباني حيث لزمه وأخذ عنه دروساً في كل يوم ولكنه لم ير هذا كافيا فأحب أن يكون له درس خاص يعرف فيه ما لا يعرفه حتى يعود إلى بلاده ليؤدي واجبه العلمي ، وكان محمد بن الحسن الشيباني عند حسن الظن فقد أخذ هذا الشاب المغربي إلى بيته وأعطاه غرفة بجوار غرفته وكان يسهر معه الليل كله يتدارس معه ويعطيه ما يريد من علمه ويساعده على فهم ما يشاء ، وكان إلى جانب ذلك يطعمه ويكسوه ، ذلك كله قربى إلى الله تعالى .

الرحيل إلى مصر :

رحل أسد بن الفرات إلى مصر بعد أن ، قضى مع الحسن عدة سنوات، وفي مصر التقى بعالمين من تلاميذ الإمام مالك وهما أشهب وابن القاسم وكلاهما مجتهد وكان أشهب فيه حدة وكان ابن القاسم فيه لين ، لزم أشهب حتى سمعه يوما يرد في مسألة على أبي حنيفة ومالك بلفظ خشن فغضب أسد وكان صريحا جريئا فرد عليه في جرأة وخشونة وتركه بعد ذلك إلى ابن القاسم حيث لزمه مدة .

أمام المحكمة :

قضية طريفة عرضت أمام المحكمة ذلك أن أسد بن الفرات جمع ما أخذه من ابن القاسم من مسائل ثم أضاف إليها من العلوم التي أخذها في رحلته الطويلة وجعلها في رسالة سماها الأسدية ، وأراد الطلاب نسخها فأبى وقال عملتها لنفسي ، فرفعوا عليه دعوى عرضت أمام القضاء. وكانت قضية طريفة لقد نظر إلى الموضوع من جميع نواحيه ثم حكم بأن الكتاب يجمع مسائل ابن القاسم ، وابن القاسم حي يستطيع المدعون أن يأخذوا منه مثل ما أخذ أسد وحكم برد الدعوى ، ولكنه لم يكتف بذلك بل توسط شخصيا ورجا أسد بن الفرات أن يعطيهم الكتاب فاستجاب ، وتناقل المدعون الكتاب بصفة ودية ، وكان هذا الكتاب أساسا للفقه المالكي .

إلى القيروان :

القيروان عاصمة المغرب في ذلك الوقت وهي المدينة التي أنشأها الفاتح المسلم عقبة بن نافع وكان في المغرب حكومة مستقلة استقلالا داخليا هي حكومة بني الأغلب.

بعد غيبة عشرين عاما تنقل فيها في أمصار المشرق يطلب العلم ويصل الليل بالنهار ، عاد إلى القيروان حيث جلس للتدريس احتسابا ، وكانت مدونته أساسا للفقه المالكي في المغرب وأخذها عنه سحنون وبنيت عليها الحواشي والشروح واشتهرت باسم " مدونة سحنون " .

القضاء :

وقد تولى القضاء بعد ذلك وكان معه أبو محرز وكان في أبي محرز لين وفي أسد شدة في الحق واستمر على ذلك فترة يقول ما يرى أنه صواب ويحكم بما يرى أنه وجه حق، وفي أحد الأيام جاء زعيم صقلية لاجئا إلى أمير المغرب زيادة الله وأخبره أن حكومة صقلية نقضت العهد وحبست أسرى المسلمين وأساءت إلى الجالية الإسلامية، وتردد الحاكم في قبول الخبر، ترى هل يكفي الأخبار لاعتبار المعاهدة منتهية فيعلن الحرب على حاكم صقلية ؟ ودعا القاضيين يستفتيهما، أما أبو محرز فلم يرى ذلك كافيا وأما أسد بن الفرات فقال إن المعاهدة أينما أبرمت على أيدي الرسل وأخبار الرسل كافية لنقضها، وأخذ الحاكم بفتوى أسد وبدأ يجهز الأسطول لبدء المعركة .

أسد أمير البحر :

طلب أسد بن الفرات من الحاكم أن يكون مع المجاهدين وخاف الأمير على أسد والمسلمين في حاجة إليه فألح أسد وقال عبارته المشهورة " وجدتم من يسير لكم المراكب من النوتية وما أحوجكم إلى من يسيرها لكم بالكتاب والسنة " ، فلم يجد الحاكم بدا من قبوله في الجيش ثم أصدر أمره بأن يكون أميرا للحملة ، ولم يسترح أسد لهذا القيد كان يريد أن يكون جنديا متطوعا لوجه الله أما الإمارة فلم تخطر له على بال ، وقال للحاكم : أبعد القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلني وتوليني الإمارة ... ؟ - ومعنى هذا الكلام أن القضاء فوق الإمارة - وأجاب الحاكم : ما عزلتك عن القضاء ولكن أضفت إليك الإمارة فأنت قاض وأمير .

وصية أسد :

جهز الأسطول المكون من ثمان وتسعين قطعة حربية فيه عشرة آلاف رجل وتسعمائة فارس وخرج الناس لوداع الأسطول في مدينة سوسة وتكلم الحاكم وخطب الخطباء وأنشد الشعراء ، ثم قام القاضي الأمير ليتكلم فجعل من هذا الموقف درسا يلقيه على الناس وقال : " والله يا معشر الناس ما ولى لي أب ولا جد ولاية قط وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط وما بلغته إلا بالعلم فعليكم بالعلم اتعبوا فيه أذهانكم وكدوا به أجسادكم تبلغوا به الدنيا والآخرة ".

موقف حاسم :

طالت المعركة وقلت الأقوات وتململ بعض الجند وعزموا على العصيان واقتربوا من الأمير أسد بن الفرات وأقبل زعيمهم أسد بن قادم يعلن رغبة الجند في العودة إلى ديارهم ، وحاول علاج هذا الموقف بالحكمة والموعظة الحسنة مبينا لهم قرب النصر وعظم الأجر فلم يفد ذلك شيئا بل تجرأ عليه أسد بن قادم وقال له : على أقل من هذا قتل الخليفة عثمان بن عفان ، وقد كان معنى هذا إعلان الثورة على الأمير أسد بن الفرات ، فلم يملك أسد بن الفرات نفسه من أن يتناول السوط من أحد الحراس وضرب به الثائر أسد بن قادم عدة مرات ثم صرخ في الجند " إلى الأمام " وتقدمهم وكان النصر العظيم وبدأت الدولة الإسلامية في صقلية حيث امتدت عدة قرون .

نهاية البطل :

في هذه المعركة استشهد بطلنا وهو يحمل راية النصر ، أو ليس من العجيب أن يستشهد بطلنا ولا يعثر على جثته أحد ولا يعرف له قبر حتى الآن ، وقد عبر الشاعر أبو تمام عن هذا الموقف بقصيدة جاء فيها:

هوى طاهر الأثواب لم تبق روضته * غداة ثوى إلا استشهدت أنها قبر

عليك سلام الله وقفا بأنني * رأيت الكريم الحر ليس له قبر

رحمه الله لقد عاش لله وطلب العلم لله وحكم بالحق لله وأفتى لله واستشهد في سبيل الله .

سعيد بن المسيب

من هو ؟

هو العالم الذي جعل طلب العلم أكبر غاياته في هذه الحياة ، يقول عن نفسه : (كنت أمشي الأيام في طلب الحديث الواحد) ، ويقول عنه مكحول الدمشقي : (لقد طفت الأرض كلها في طلب العلم فلم أجد أعلم منه) ، كان يمتاز بالإخلاص والجرأة والصراحة مع الناس جميعا مع الحكام والمحكومين ، رفض عطاء السلطان لأنه كان يرى أن استغناء العلماء عن أموال الناس ورواتب الدولة يجعلهم أعزة على أنفسهم وعلى الناس وعلى الحكام ، كان يتاجر في أربعمائة درهم في الزيت ويعيش من تجارته ورفض عطاء السلطان الذي بلغ ثلاثمائة ألف درهم ، كان عالما في الحديث وفي الفقه ومع ذلك فقد كان أديبا وشاعرا وكان غاية في التقى ، يقولون عنه إنه مكث أربعين سنة لا يسمع الآذان إلا وهو في المسجد وكان مكانه دائما في الصف الأول .

أمير المؤمنين يدعوه :

أرسل أمير المؤمنين أمير شرطته ليستدعي له سعيد بن المسيب فذهب إليه في المسجد وهو يلقي درسه على تلاميذه وأشار إليه مدير الشرطة أن اتبعني فإن أمير المؤمنين يريدك ، وظن مدير الشرطة أن سعيد بن المسيب قد تبعه ولكنه نظر خلفه بعد هنيهة فلم يجده فخيل إليه أنه لم ير شارته ولم يسمع صوته ، فعاد إليه وقال له : قم فأجب أمير المؤمنين ، قال سعيد : مالي إليه من حاجة ، قال مدير الشرطة متعجبا من هذه الجرأة التي لم ير مثلها من قبل : لو كان الأمر لي لضربت عنقك يدعوك أمير المؤمنين ولا تجيب ؟ ، قال له سعيد في هدوء العالم بنفسه وبالله تعالى : إن كان يدعوني ليعطيني شيئا فهو لك وإن كان لشر فإني والله لا أحل حبوتي حتى يقضي الله ما يشاء .

سعيد يفتي :

كان سعيد يفتي بعدم جواز البيعتين لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، ولكن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أراد أن يبايع لولديه الوليد وسليمان من بعده وتبعه الناس وبايعوا ، ولكن سعيد تمسك بفتواه فلم يتراجع عنها ولم يفكر في فتوى أخرى

تخرجه من المأزق ، ولم يكن من المعقول أن يسكت أمير المؤمنين على ذلك فأرسل إليه من يرغبه أو يرهبه فلم يأبه لذلك وهدده بالجلد علنا وجزع العلماء والعقلاء لذلك وتوسطوا لحل هذه المشكلة وفوضهم الأمير في أن يحلوا المشكلة بالأسلوب الذي يرونه ملائما ، فذهب وفد من العلماء منهم سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسأله عبد الله بن عمرو وعرضوا عليه حلا مقبولا من وجهة نظرهم هو أن يسكت فلا يقول لا ، ولا يقول نعم ، ولكن سعيد بن المسيب رفض ذلك رفضا باتا وهو يقول أنا أسكت عن الحق ؟ ، قالوا له حلا آخر فاعتزل في بيتك أياما حتى تمر العاصفة ، فرفض ذلك أيضا وهو يقول أأبقى في بيتي فلا أخرج إلى الصلاة وأنا أسمع حي على الصلاة حي على الفلاح وما سمعتها من أربعين سنة إلا وأنا في المسجد ؟ ، فاهتدوا إلى حل ثالث وهو أن يبدل مكانه في المسجد حتى إذا جاء رسول الأمير لم يجده فيه يقول لم أجده، فرفض ذلك أيضا وهو يقول أخوفا من مخلوق ؟ لا، لا أتقدم عن مكاني شبرا ولا أتأخر شبرا ، وفشلت هذه الجهود كلها .

إلى ساحة العقوبات :

ودعاه الأمير نفسه إلى أن يبايع أو يقتل ، فقال سعيد : نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين ، يقول هذا وكأنه في درسه ومع تلاميذه ولم يفكر في التهديد ولا في السيف الذي على عنقه فهو لا يكتم العلم ولا يبدل الحكم ، وأصدر الأمير أمره إلى الشرطة بأن يساق إلى ساحة العقوبات وجرده من ثيابه إلا من سروال قصير يستر به عورته وضربه خمسين سوطا وأخذه إلى الحبس .

الحرص على العلم :

في أثناء ضرب سعيد بالسياط أقبل قتادة العالم المشهور وخاف أن يموت سعيد من التعذيب فيذهب علمه فطلب من الجلادين أن يسمحوا له بسؤاله فتركوه يسأله كما يريد ، وإن الموقف عجيبا الدم يسيل من جسم سعيد وقتادة يسأل في المسائل الفقهية وسعيد وهو على هذه الحال يناقش ويجيب في هدوء وكأن الأمر عادي ، والجلادون ينصتون إلى هذه المناقشة العلمية في عجب من قتادة وسعيد في وقت واحد .

طعام السجن :

وفي أثناء وجوده في السجن أرادت ابنة سعيد أن تخفف عن أبيها فصنعت له

طعاما خاصا وجاءت به لأبيها في السجن ، ولكنه رفض قائلا : يا بنيتي هذا ما يريده هشام الأمير إن افتقر ويذهب مالي فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدوني بها ولا أدري إلى مدى يمتد سجني فأنظر إلى ما كنت أكله كل يوم في بيتي فآتيني به فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك.

حتى يحكم الله :

وبلغ عبد الملك بن مروان ما حدث لسعيد من الضرب والحبس فتألم ولام الأمير بل وأمر بعقابه وفصله من عمله وولى مكانه عمر بن عبد العزيز، فقال سعيد لأولاده وأهله وتلاميذه : إياكم والتعرض له بعد عزله أو الشماتة به لما ناله إني أدعه حتى يحكم الله بيننا .

أمير المؤمنين يخطب ابنة سعيد :

أرسل أمير المؤمنين مندوبا خاصا في مهمة لا يعرفها أحد لسعيد بن المسيب ، ووصل الموكب الفخم إلى المسجد ووقف رسول الخليفة على حلقة سعيد حيث سلم عليه بتحية الإسلام ثم أبلغه رسالة أمير المؤمنين وأنه قادم إليه ليخطب أليه ابنته للوليد بن عبد الملك ولي عهد المسلمين ، وظن الناس أن سعيد استيقظ لذلك فهذه نعمة قد نزلت عليه ، ولكن مقياس سعيد يختلف عن مقياس الناس فمقياسه مقياس الإسلام هو يريد لابنته الراحة والاستقرار والسكن والسعادة في الدنيا والجنة في الآخرة ، ورجل من عامة المسلمين له دين وخلق خير من ابن أمير المؤمنين الذي لا يظن أنه يبلغ في دينه وخلقه المستوى الذي يرضاه لابنته ، فكر سعيد لحظات قصيرة ثم أعطى جوابه الصارم لرسول أمير المؤمنين وقال له : لا.

حسنة الدنيا :

وذهب سعيد إلى منزله وكأن شيئا لم يكن فابنته قد خطبت وهو قد رفض وهذا كل ما في الأمر ، واستقبلته ابنته بابتسامتها العادية وقالت له يا أبت كنت أقرأ الآن الآية الكريمة (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) وأنا أعلم حسنة الآخرة فما حسنة الدنيا ؟ قال يا بنية ما أرى إلا أنها للرجل الزوجة الصالحة وللمرأة الزوج الصالح .

أبو وداعة :

أبو وداعة طالب علم فقير لكنه غني في دينه وفي أخلاقه ، انقطع عن الدرس أياما ثم جاء إلى سعيد وبعد انتهاء الدرس سأله عن سبب انقطاعه ، فقال: مرضت زوجتي فمرضتها ثم توفيت فدفنتها ، فقال له : فهلا أخبرتنا فأعناك ، فقال : ذاك ما كان ، فسأله سعيد وهل تزوجت غيرها ؟ - ويبدوا هذا السؤال غريبا بالنسبة لمجتمعاتنا الحاضرة ولكنه بمقياس الإسلام سؤال سليم - قال أبو وداعة : ومن يزوجني وما أملك إلا أربعة دراهم ؟ ، قال سعيد : أنا ، وبهت أبو وداعة من كلام سعيد فهو يعرف أن سعيد بن المسيب رفض ابن أمير المؤمنين الذي يملك ما بين المحيط الأطلسي وجبال الصين ، ترى كيف يزوج ابنته له وهو لا يملك إلا أربعة دراهم ؟ بهت أبو وداعة ولم يحر جوابا أو لعله كذب أذنيه من عجيب ما سمع ، وإذا بسعيد يستدعي الشهود ويعقد العقد وذهب كل إلى بيته .

هذه زوجتك :

جلس أبو وداعة في بيته يأكل الخبز والزيت الذي لا يملك غيره وإذا بباب بيته يقرع ، قال أبو وداعة : من ؟ ، قال الطارق : سعيد ، مر على ذهن أبو وداعة كل رجل اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب فهو الرجل الذي لم يطرق باب أحد طوال أربعين سنة وما رئي إلا بين بيته والمسجد ، وفتح أبو وداعة الباب وإذا بسعيد بن المسيب أمامه وخلفه ابنته ، وقال له : كرهت أن يسألني الله عن وحدتك ولك زوجة فجئت بها ، ودفع العروس إلى داخل الدار ، قال أبو وداعة وهو في دهشة واستغراب : رحمك الله ألا انتظرت حتى أحصل مالا وأعد للعرس عدة ، قال سعيد : أما قلت معك أربعة دراهم ؟ ، وانصرف سعيد وبقى أبو وداعة حائرا ماذا يفعل ؟ وهداه تفكيره إلى شيء فرمى بحصيات على بيوت الجيران يعلمهم بشيء قد حدث ، وهذا أسلوب الإعلام في هذه الأيام ، فجاء النسوة يسألن فقال لهن : لقد زوجني سعيد بن المسيب ابنته فأردن أن يستوثقن من هذا الخبر ويقلن أسعيد بن المسيب زوجك ابنته ؟ أزوجك سعيد بن المسيب ابنته ؟ قال نعم وهي في الدار ، وفي سرعة امتلأ البيت بنساء الجيران وأخذن في تزيين العروس والاحتفال بها وزفافها إلى زوجها .

عندي علم سعيد :

قال أبو وداعة ورأيتها أجمل امرأة وأكملها ، ولما أصبحت غدوت لأذهب ، قالت : إلى أين ؟ قلت : إلى مجلس سعيد ، قالت : أتجلس أعلمك علم سعيد ، يقول أبو وداعة : وإذا هي عالمة محدثة وقد كنا بعد إذا أعبت العلماء مسألة رجفت إليها .

هكذا أصبح سعيد العامل العالم الشجاع التقي قدوة في حياته وقدوة بعد مماته في فهمه للإسلام وفي تمسكه بالحق وفي جرأته مهما ناله من أذى ، ثم في زهده ونظرته إلى الدنيا التي تتفق مع الحديث الشريف (لو أن الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء) .

من هو ؟

قال عنه أحد معاصريه أنه كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن ، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث ، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه ، وكالنحوي الذي لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم .

مولده :

ولد في القرن الثالث الهجري ، وهو قرن حافل بالموهوبين والشعراء والكتاب والمؤرخين واللنويين والمحدثين والفقهاء ، وكان مولده بطبرستان سنة أربع وعشرين ومائتين ، سأله أبو حاتم السجستاني عن معنى طبرستان فقال لا أدري ، وقال السجستاني لما افتتحت وابتدأ بينائها كانت أرضا ذات شجر فالتمسوا ما يقطعون به الشجر فجاؤوهم بهذا (الطبر) الذي يقطع به الشجر فسمي الموضع به .

طفولته :

ظهرت قوة حافظته وشدة إقباله على العلم منذ طفولته ، وقال لأحد أصحابه في خلال حديثه عن نفسه : (حفظت القرآن ولي سبع سنين ، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ ، وكان معي مخلاة مملوءة بالحجارة وأنا أرمي بين يديه) فقال له المعبر عن الرؤية أنه إن كبر نصح في دينه وذب عن شريعته ، فحرص أبوه على معونته في طلب العلم ، وبخاصة أنه لمح فيه الذكاء والإخلاص في طلب العلم والجد في تحصيله .

طلبه العلم :

في طبرستان حفظ القرآن ، وفيها وفي الري كتب الحديث ، وفي بغداد أقام فترة طويلة يكتب عن شيوخها ويحضر مجالسهم ويستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفي البصرة استمع إلى شيوخها وفي الكوفة كذلك ، ثم عاد إلى بغداد مرة أخرى فأقام بها مدة يدرس علوم القرآن والفقه ثم ذهب إلى مصر ، وفي الطريق كان لا يلتقي بعالم من الشام أو غيرها إلا لقيه وأخذ عنه ، وقد وصل إلى مصر سنة ٢٥٣ هـ فأخذ عن

شيوخها وأهل العلم فيها ، وقال عن نفسه في ذلك : (لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به ، فجاءني رجل يوما وسألني عن شيء من العروض - موسيقى الشعر - ولم أكن نشطت له قبل ذلك ، فقلت له على الفور لا أتكلم اليوم في شيء من العروض فإذا كان في غد فصِر إلي ، وطلبت من صديقي العروض للخليل بن أحمد ، فجاء به فنظرت فيه ليلتي فأمسيت غير عروضي وأصبحت عروضيا ...) وهذا يدل على شدة ذكائه وحبه للعلم ، ثم عاد بعد ذلك إلى بغداد حيث اشتهر اسمه فيها وشاع خبره .

مميزاته :

كان له قدرة فائقة على استيعاب العلوم وقوة الفهم والانصراف التام لتحصيل العلم ، وكان حرا في تفكيره صريحا في إبداء رأيه وقد سبب له هذا بعض المتاعب مع الفقهاء في بغداد ، ولكنه استطاع أن ينتهي من هذه المشاكل بتسويتها .

وكان صادقا زاهدا في الدنيا ، قانعا بما يأتيه من مال ضيعة ورثها عن أبيه ، ومما يحكى عن زهده أن الوزير محمد بن عبيد الله وجه إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها ورقة وسأله أن يقبلها وقال للذي حملها إليه إن قبلها وإلا فسله أن يفرقها في أصحابه ممن يستحق ، فلما دخل عليه الرسول وأوصل إليه الرفقة امتنع من قبول الدراهم ، ولما قال له الرسول : فرقها في أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها ، أجابه الطبري : هو أعرف مني بذلك .

كان صافي النفس ، طيب القلب ، ولذلك فإنه كان محبوبا من تلاميذه وأصدقائه بل ومن منافسيه ، قال عنه أحد تلاميذه (كان أبو جعفر ظريفا في ظاهره ، نظيفا في باطنه ، حسن المعاشرة لمجالسنا ، متفقدا لأحوال أصحابه ، مهذبا في جميع أحواله ، جميل الأدب في مأكله وملبسه وما يخصه في أحوال نفسه منبسطا مع إخوانه حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة ، وكان إذا أُهدِى إليه هدية مما يمكن المكافأة عليه قبلها وكافأه ، وإن كانت مما لا يمكن المكافأة عليه ردها واعتذر إلى مهديها) .

مؤلفاته :

حين فكر في تأليف كتاب يفسر فيه القرآن الكريم عرض الأمر على أصحابه العلماء حتى يشتركوا معه في هذا العبء الضخم ، فقالوا له كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه ، فاختصره في نحو ثلاثة

آلاف ورقة ، وقد حاز إعجاب علماء عصره ، ثم فكر في كتابة تاريخ العالم ، فعرض الأمر أيضا على العلماء ، وقال لهم : أتنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ، قالوا : كم قدره ؟ فقال : ثلاثون ألف ورقة، فأجابوه أيضا بقولهم : هذا مما يفني الأعمار قبل تمامه ، فقال : إنا لله ، ماتت الهمم ، فكتبه في نحو ثلاثة آلاف ورقة .

منهجه في كتابة التاريخ :

قال الطبري في مقدمة كتابه : وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني اسمه فيه وإنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها ، فيه دون ما أدرك بحجج العقل وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أخبار الحادثين غير واحل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس ، فمهما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضيين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤتى في ذلك من قِبلنا وإنما أتى من قِبل بعض الناقلين إلينا وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا .

فهو بذلك لم يتجاوز الوصف والسرد الحولي ، حقيقة أنه ربط بعضها ببعض ببراعة ولكنه لم يفكر في تعليل الحوادث ولم يحاول تعرف أسبابها ولم يعمل على كشف البواعث العميقة التي تعمل وراء التغيرات الاجتماعية الظاهرة مكتفيا بذكر الأسباب المباشرة وبالتعويد على الإسناد .

وهذا أسلوب مؤرخي العرب في أكثر مؤلفاتهم التاريخية ، لأنهم كانوا يعتمدون على الثقة بالشاهد الأول والاعتماد على صدق رواته ، ولم يتجهوا إلى نقد الرواية في ذاتها وتحقيقها .

نقد ابن خلدون :

وقد انتقد ابن خلدون في مقدمته هذه الطريقة ، وحمل عليها وقال إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، وربما لم يؤمن فيها من العثور ومذلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع

للمؤرخين والمعشرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بعداء الرحم والغلط ولاسيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرض في الحكايات إذ هي فطنة الكذب ومطية الهذر ولابد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد .

رأي علي أدهم :

والأستاذ على أدهم له رأي في ذلك ذكره في كتابه (بعض مؤرخي الإسلام) بقوله : (وإني أرجح أن مثل هذا الرجل كان يغربل الروايات والأقاويل في صمت وسكون فينفي ما يداخله فيه الشك ويكتب ما يطمئن إليه ويراه جديرا بالثقة والتصديق ، فليس هو خابط عشواء ولا حاطب ليل ، فقد اعتمد على وثائق كثيرة وأحاديث وروايات وأخبار ممحصة إلى حد ما ، وفيها ما يدل على دقة النظر وصدق الحكم وقد أجاد عرضها وأحسن تنسيقها حتى أغنت عن الرجوع إلى ما كان قبلها وأصبحت مادة يستمد منها المؤرخون ويعتملون عليها ويسيرون في أضوائها .

أسلوب الطبري :

أسلوب الطبري يجمع بين السهولة والجزالة والوفاء بالغرض من أقرب سبيل وفي تصويره للحوادث وضوح ظاهر ويلاحظ أنه كان يعني في كتابه بذكر بعض الخطب وأقوال الحكماء وشعر شعراء يذكرها في مناسباتها ويضيء بها جوانب التاريخ .

وفاته :

وافته المنية لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠ هـ وقد مهد الطريق لمن جاء بعده من كبار مؤرخي الإسلام مثل المسعودي صاحب مروج الذهب ، وابن مسكويه صاحب كتاب تجارب الأمم ، وابن الأثير واضع كتاب الكامل .

في شهر رمضان المعظم عرض على شاشة تلفاز قطر مسلسل الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وقد عالج المسلسل أشياء عامة في تاريخ الإسلام ، منها دور الشعوبيين في نشر الأفكار الكاذبة لإشاعة الفتن والدسائس في أرجاء المجتمع الإسلامي حتى يخلو الجو لهم ولأفكارهم ، وقد صاروا في هذا الطريق بتخطيط ونجاح .

ولعل هارون الرشيد من أكثر خلفاء بني العباس الذين افترى عليهم التاريخ وجعل صورهم أمام الناس صورا غريبة ، ويلاحظ أنه في أرجاء المجتمعات الإسلامية إذا ذكر الرشيد فإن الصورة التي تنطبع أمام السامع أو القارئ ما هي إلا صورة رجل داعر يعيش بين دنان الخمر وفي أحضان المغنيات ، ووصل ذلك المفهوم إلى الكتب المدرسية والمجلات الأدبية فانتشر هذا المفهوم وساد المجتمعات الإسلامية .

وفي أحد الكتب المدرسية لأحد الصفوف الإعدادية مثلا ذكر أن الرشيد كان يعيش حياة البذخ والترف ، ومن ذلك أنه كان ينفق على إعداد طبق صغير على مائدته ما يزيد على ألف درهم ، وعلى مثل هذا المفهوم أصبحنا نربي أبنائنا منذ صغرهم فينطبع عن الخلفاء ما ينطبع من الصور الغريبة ، ترى ما أصل هذه القصة مثلا ؟

كتب الطبري في ترجمة هارون الرشيد أنه كان يحج عاما ويغزو عاما ، وأنه كان يصلي في اليوم والليلة مائة ركعة ما لم يعتل بعلة أو يكون مشغولا بغزو ، وأنه لم يكن يقطع في أمر من أمور المسلمين إلا بعد الرجوع إلى الصالحين من أهل العلم ، ومع ذلك فإن الصورة التي كانت تنتشر عنه مختلفة تماما ، ولنأتي إلى قصة الطبق .

قصة الطبق :

وقصة الطبق التي ذكرها المسعودي في كتابه مروج الذهب صورة مختلفة تماما عما شاع وذاع عن الخليفة هارون الرشيد ، يقول المسعودي ما ملخصه : (حدث إبراهيم بن المهدي قال : زارني الرشيد بالرقة فوجد مرة من بين ما قرب إليه من طعام جاما فيه ما يشبه سمكا مقطعا فاستصغر القطعة ، وقال : لما صغّر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين هذه ألسنة أسماك ، قال : فيشبه أن يكون في هذا الجام مائة لسان ؟ قال الخادم : يا أمير المؤمنين فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن ثمن هذا السمك فأخبره بأنه أكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده

وحلف ألا يطعم شيئا حتى يحضر ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به ، وقال : أرجو أن يكون ذلك كفارة لسرفك في إنفاقك على جام السمك ألف درهم ، ثم ناول الجام بعض خدمه وقال: أخرج من دار أخي ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه، قال إبراهيم : وكان الجام يساوي مائتين وسبعين دينارا، فغمست بعض خدمي للخروج ليبتاع الجام ممن يصير إليه ، ففطن الرشيد وقال للخادم: يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مائتي دينار فهو خير منها) .

هذه هي الصورة الحقيقية لهارون الرشيد ، ولكن الكتاب المغرضين الذين يريدون أن يشوهوا التاريخ الإسلامي في أي عصر من عصوره أخذوا زاوية على نظام (فويل للمصلين) وليس كل إنسان دارس للتاريخ ، وليس كل إنسان عنده ملكة النقد ، فكيف بالتلاميذ ؟ وإذا كان الأمر قد وصل في كتابة التاريخ إلى الصحابة رضوان الله عليهم سواء أكان ذلك من الشعوبيين في القديم أو في الحديث فإن الأمر أهون حينما يصير إلى غيرهم ، وعن طريق المذهب الذاتي في كتابة التاريخ الذي نراه الآن وقبل الآن ، ترى هل آن الأوان لأن يتجه المتخصصون في التاريخ الإسلامي إلى كتابة سليمة غير منتظرين الأجر إلا من الله سبحانه وتعالى ؟ .

مولده :

ولد أبو حامد الغزالي سنة خمسين وأربعمائة للهجرة ببلدة (طوس) إحدى بلاد خراسان الفارسية ، كان أبوه فقيرا يكسب قوته من مغزله ومن قيامه بخدمة رجال الدين والسعي بين أيديهم وهم في مجالسهم وخلواتهم ، وقد احتسب كل جهوده لله ومن أجل العلم فقد كان منصرفا عن الدنيا إلى الآخرة ، وعلى الرغم من ذلك فإن القدر لم يمهل ذلك الرجل الفقير الصالح ، وكان أخر أمنية له أن يفتح الله لابنه بابا إلى العلم وطريقا نحو المعرفة ، ولذلك فقد كانت أخر وصية له همس بها في أذن رجل صوفي فقير من أصدقائه (أن لي لتأسفا عظيما على عدم تعلم الخط وأشتهي إدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك أن ينفذ في ذلك جميع ما خلفته لهما) .

ولم يقصر الصوفي الفقير في تنفيذ هذه الوصية فأخذ على عاتقه توجيه الغلام الصغير وشقيقه أحمد حتى نفذ المال الذي تركه والدهما ، وتحير الرجل ماذا يفعل ؟ وهو لا يملك شيئا يعين به الطفلين حتى يواصلا تعليمهما، فتقدم إليهما في ألم وحزن وقال لهما : (إعلما أني أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما وأصلح حالكما فما لكما إلا أن تلجئا إلى مدرسة فإنكما طالبان للفقه عساه يحصل لكما مقدار قوتكما) .

الالتحاق بالمدرسة :

ووجد الصبيان الكنف الحصين إلى جوار بيت الله في إحدى المدارس الإسلامية التي كانت تلحق بالمساجد وتبذل العون والنفقة لطلاب العلم ، وقد تتلمذ الغزالي في أول الأمر على الفقيه علي أحمد بن محمد الطوس ثم سافر إلى جرجان باحثا عن طبقة أعلى في المعرفة والثقافة ، وفي جرجان جلس يتلقى العلم عن العلامة أبي نصر الإسماعيلي حتى استوعب كل ما لديه .

حادث يغير مجرى حياته :

كان عائدا إلى طوس مع إحدى القوافل التي كانت تعبر الصحاري في طريقها إلى

طوس فخرج عليهم جماعة من قطاع الطرق وسرقوا كل ما معهم من متاع وبه أضابير الشيخ ، ويقص الغزالي ما حدث له في كتابه المنقذ من الضلال فيقول : قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا ، فتعقبتهم فالتفت إلي مقدمهم (رئيسهم) وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت ، فقلت له : أسألك بالذي ترجوا السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فما هي بشيء تنتفعون به ؟ ، قال لي : وما هي تعليقتك ؟ ، فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علومها ، فضحك وقال : كيف عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ، ثم أمر أصحابه فسلموا إلي المخلاة .

وقد كان لهذه الحادثة أثر كبير غير مجرى حياته وحدثته نفسه بأن الله تعالى لم يسق هذا العيار لسرقة متاع القافلة إلا ليقول هذا التحذير في أذن هذا المتعلم الناشئ، وليعطيه درسا أصيلا في طريقة السماع ، ومنذ ذلك اليوم أدرك أن طريق العلم الصحيح إنما هو في الصدور فتحول من مفكر قارئ إلى مفكر داع ، وبذلك يحتفظ بعلمه في عقله فلا سبيل لأحد عليه .

وبعد أن حفظ كل علوم جرجان ذهب إلى نيسابور وهناك التقى بالصوفي المشهور أبو المعالي ضياء الدين الجويني ، وعلى يد الجويني اكتملت شخصية الغزالي ، ولما مات الجويني قصد إلى المعسكر حيث الوزير نظام الملك صاحب الفضل على تأسيس مدارس المعسكر ، وفي هذا الجو بدأ الغزالي يلج ميدان الجدال والنقاش مع العلماء وبدأ يظهر في أفق الأكفاء والنبهاء ، ثم ذهب إلى بغداد كعبة العلماء ومنارة ذوي الطموح في ذلك الوقت ، وفي بغداد يلقى شهرة بالغة حتى يخلع عليه العلماء لقبا لم يخلع على أحد قبله ولا على أحد بعده " حجة الإسلام وعلم الدين " .

حياته الفكرية :

شق الغزالي طريقه في مجتمعه بقوة وكأنه أمة وحده دون أن يستند على أحد حتى لنرى هذه الظاهرة تنتقل من واقعه المادي إلى منهجه الفكري، وإنه ليعلن ذلك صراحة (وقد كان التعطش إلى درك الحقائق دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله لا باختياري وحيلتي ، فهو لا يميز بين محق أو مبطل ولا مسنن أو مبتدع ولا باطني أو ظاهري ولا بين فلسفي أو متكلم ولا بين متعين أو متزندق) .

ويمضي الغزالي في طريقه المتحرر فهو يضع أمامه كل ما يدور حوله ويخضعه لمجهر البحث كي يستخلص منه ما يراه أولى بالاحترام ، وقد نظر فرأى أن ما يدور حوله يتلخص في أربعة اتجاهات : (اتجاه المتكلمين ، اتجاه الفلاسفة ، واتجاه الصوفية ، واتجاه الباطنية) ، ويتجه إلى استبانة خفايا هذه الاتجاهات وإدراك نواياها فيقول : (وعلمت يقينا أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقا) .

ويبدأ الغزالي بالدخول إلى علم الكلام وتبحر فيه ثم إلى الفلسفة حيث ناقش الفلاسفة في كتابه " تهافت الفلاسفة " ، ثم الباطنية واخذ يناقشهم وانتهى إلى الاتجاه الصوفي وهو يقول عن الصوفيين : (تعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أموال وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل ، وإن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق إلا مالا سبيل إليه بالسماع والتعليم بل بالذوق والسلوك) .

الغزالي يتصوف :

وقد أسلمته هذه الدراسة المستفيضة والجري وراء الحقيقة إلى صراع نفسي وحيرة ذهنية بالغة يصورها الغزالي في تحليل يقول فيه : (فلم أزل أتفكر مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم رجلا وأؤخر أخرى عنه ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل علي جند الشهوة حملة فيتعثرها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي الرحيل فلم يبق من العمر إلا القليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العلم رياء وتحبيل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة اشهر أولها رجب سنة ٤٨٨ هـ وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أثقل الله لساني حتى اعتقل من التدريس ، ثم لما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختباري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب) .

ولقد كان الغزالي ذا قلب حساس وضمير دائب التأنيب له ولذلك فإنه يصرخ في حرقة وألم (طلبنا العلم لله فأبى إلا أن يكون لغير الله) ، وحينما نفض الغزالي يده من الدنيا كان قد وصل إلى مقام كبير حتى ليشعر أهل بغداد حين قرر الخروج منها أن عينا قد أصابت أهل الإسلام .

لقد بدأ يعيد تنظيم حياته لأنه قال : (قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب من الدنيا) ويدأ ينفذ نهجه الجديد فترك مكانه في التدريس ببغداد لأخيه أحمد ، وفرق ما كان معه من مال ولم يبق إلا على قدر الكفاف وقوت العيال ، ثم يرحل إلى الشام فيقيم بها عامين ، ثم إلى بيت المقدس ، ثم إلى مكة المكرمة، ثم يعود إلى وطنه الأول ، وقد استمرت العزلة عشر سنوات وكان لهذه العزلة أثرها في تقويم روح هذا الإمام الجليل ، ويقول عن هذه الفترة : (بان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها مرة بالذوق ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الإيماني) .

الغزالي يعود :

بعد عشر سنوات يعود الغزالي ليعكس على المجتمع الملامح التي استفادها من عزلته ، يعود وقد حمل مشاعر دافقة جديدة لها أهداف جديدة ، يقول في ذلك : (كنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي يكسب به الجاه وأدعو إليه بقولي وعملي وكان ذلك قصدي ونيتي) أما اليوم فهو بنشر العلم للعلم يشارك به في دفع موجة المعرفة في اتجاه الأجيال الزاحفة ، وقد آمن بأن المشاركة في بناء المجتمع نوع من العبادة وإن لم تكن كل العبادة .

كتاب إحياء علوم الدين :

أخذ الغزالي من كل علم وشارك في كل اتجاه وتفاعل بكل ما وعاه ومزجه وصنع من هذا المزيج إنتاجه العظيم الذي انعكس في مؤلفه الأحياء ، وهو يتناول الموضوع بالتحليل ثم ينتقل إلى التعليم ثم الاستقصاء ثم إلى الاستشهاد بالآثار والتجارب والوقائع وبالحديث والقرآن ثم يخرج من هذا بإثبات ما أراد إثباته في صدر الباب وهو في كل ذلك يعرض الموضوع عرضا منمقا نتيجة الاحتضان الطويل للفكرة.

وفي هذا الكتاب يظهر مزج الحديث بالقرآن وبالفلسفة وبالواقع وبالتجربة وكان

لذلك مقنعا .

وكتاب الإحياء أربعة أجزاء كل جزء منها مستقل بنفسه ويشتمل على مبحث خاص من المباحث الأربعة التي أدار الكتاب عليها وهي : العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات .

صورة الباحث :

مضى الغزالي في طريقه يحاول أن يضع لأبناء عصره ولأبناء العصور القادمة صورة سليمة للعالم الباحث وللصوفي الزاهد، وفي ذلك يقول: (علماء الآخرة يعرفون بسيماهم من السكينة والذلة والتواضع ، أما التمشدق والاستغراق في الضحك والجدة في الحركة والنطق فمن آثار البطر والغفلة و ذلك من دأب أبناء الدنيا) .

ويقول : (مهما رأيت العلماء يتنافرون ويتحاسدون ولا يستأنسون فاعلم أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم خاسرون) .

مجاهد الغامري

قائد الأسطول العربي في غرب البحر الأبيض المتوسط

اسمه :

مجاهد بن يوسف بن علي الغامري عاش في القرن الخامس الهجري ، وقد استرقه المنصور وهو لا يزال طفلا في بلاطه بقرطبة الذي كان بمثابة أكاديمية للعلوم والفنون فأتيحت له الفرصة لكي يتدرب على الفروسية والقتال إلى جانب تثقيفه وتعليمه ، واستعداده الشخصي جعله يبرز في استعمال السلاح ، وطموحاته الباقية جعلت نجمه يبزغ في عالم السياسة وذكاءه وبعد نظره ، حقق له الكثير من أماله وأطماعه حتى أصبح اسمه علما في تاريخ ملوك الطوائف بالأندلس ، وقد برع في العلوم الدينية وفتح أبوابه للعلماء والقراء وأفاض عليهم من كرمه وتشجيعه فحج إليه الناس من كل صوب وأقاموا عنده وأصبح أهل (دانيه) أقرأ أهل الأندلس وصارت مدينتهم مدينة القراء بالمغرب .

أخلاقه :

أبرز أخلاقه الذكاء والدهاء وحسن التذوق والتدبير والشجاعة إلى جانب الجلد والصبر العجيب ، وكان لا يفقد الثقة بنفسه .

دانية :

لقد ولاه المنصور بن أبي عامر إمارة دانية التي تتمتع بموقع استراتيجي هام ، فهي تطل على البحر بما يفسح المجال لقرارات مجاهد البحرية ، وتحتل مكانا هاما ببلاد الأندلس ، وهكذا أصبح حاكما لمدينة دانية التي أصبحت مركزا للدراسات الدينية بعد أن كان حاجبا للخليفة ، وكان أهم شخصية في عهده الذي حاز في ذلك الوقت لقب " ذو الوزارتين " وهو اللقب الذي ذهب به غازيا جزر البحر الأبيض المتوسط وقد ثبتت ولايته على دانية من سنة ٤٠٢ هـ حتى وفاته عام ٤٣٦ هـ .

وقد أخذ يستعد للمعارك المقبلة ويعد أسطولا ضخما وجيشا قويا كثير العدد ولا يضم من الفرسان إلا الأبطال الشجعان ، وكان بها قلعة حصينة لا تمتد إليها يد

طامع ، وكانت تحتل مكانة ذات أهمية قصوى بين الولايات الأندلسية .

مجاهد وغزو جزائر البليار :

منذ ابتداء القرن التاسع الميلادي كان الغرب يسيطر على البحر الأبيض، وقد فتح المسلمون بقيادة مجاهد صقلية وسردانية وكورسيكا وجزر البلقان .

يقول الدكتور حسين مؤنس : (إنهم هم الذين كسروا الوحدة التاريخية القديمة لهذا البحر وحولوه من بحيرة داخلة في نطاق العالم الأثيني اليوناني إلى حد بين ذلك العالم وعالم آخر جديد هو العالم الإسلامي) ، وفي عام ٤٠٥ هـ أعد مجاهد حملة لفتح البليار وابتدأ باحتلال الجزر الثلاث الرئيسة وهي ميورت ومورقة ويابسة المعروفه بجمالها وخضرتها وذلك في شهر رمضان من نفس العام ، وبعد أن احتل مجاهد جزر البليار اتجه بعد خمسة أشهر إلى سردانية لفتحها وأقلع بـ ١٢٠ مركبا شراعيا وألف حصان .

يقول المؤرخ الإيطالي بيسبا عن مجاهد : (أنه كان يهدف إلى فكرة جريئة وهي جعل البحر الأبيض المتوسط بحرا إسلاميا ولتحقيق هذا الهدف أعد حملات عسكرية عديدة واستطاع أن يحتل جزءا كبيرا من جزيرة سردانية التي تعد من المناطق الجبلية، وقد احتل معاقل عديدة ثم بدأ يقيم مزيدا من الحصون) ، ثم توجه إلى غزو مدينة لوني على الشاطئ الإيطالي وكانت تعتبر مركزا تجاريا هاما واشتهرت بصناعة الرخام ، وقد هاجم بيزا واحتل جزءا من أحيائها ثم حدثت معركة بين مجاهد وبين البابا ، ثم بين مجاهد وقواد بيزا وجنوا ثم رجع مجاهد إلى دانية بعد ذلك ، لقد أراد مجاهد أن يستولى على الجزر الشرقية وأن يتخذها مركزا لنشاطه البحري الكبير ، وقد كان يهدف إلى السيطرة على مياه البحر المتوسط .

وتقع دانية في شرق الأندلس ، وفي أيام حكم الأمويين بقرطبة وكانت تعد من دانية الحملات البحرية العديدة لحماية الشواطئ الأندلسية من الهجمات العدوانية ولا سيما هجمات القراصنة ، وأيضا مهاجمة النصارى على الساحل الفرنسي والجزر الفرنسية ، وميناء دانية يعتبر بناءا عجيبا يعرف بمرسى السمان ويقع خلفه جبل يسمى قاعدة وهذا الجبل يكشف الأعداء القادمين من جهة البحر على مسافة بعيدة وكان لها سور حصين من ناحية الشرق يمتد في البحر وبني هذا السور بدقة هندسية رائعة ،

كما كان لها مباني قيمة وكان يتصل بها أيضا بساتين عديدة وكثيرة يزرع بها التين والعنب واللوز ، ويوجد نهر قريب منها كانت تجمع فيه الأخشاب من الأقاليم الداخلية التي كانت تزخر بالأشجار ، وكانت دانية تضم دار إنشاء صناعة السفن (ترسانة) ، وكانت بداية الخط البحري المتجه من أسبانيا إلى الشرق، ويحتل مجاهد مكانا مرموقا نظرا لحرصه الشديد للكتب والتحف الفنية التي اشترى بعضها وجلب بعضها الآخر في أثناء غزواته البحرية ، وكان لتشجيع مجاهد للعلم والأدب ورجالهما فضل كبير في ازدهار الثقافة في عصره وبخاصة في استعادة الآثار العلمية القديمة .

قاضي الجماعة (منذر بن سعيد)

قاضي الجماعة :

لقب يطلق على الفقيه العالم المبدع (منذر بن سعيد) كان بارعا في العلوم الشرعية واللغوية خطيبا عالما بالجدل ، وقد ألف في العلوم القرآنية والسنة النبوية كما ألف في الزهد والتصوف ، ومن الكتب التي ألفها كتاب (أحكام القرآن وكتاب الناسخ والمنسوخ) .

كان منذر بن سعيد ذا منظر جميل وخلق حميد وتواضع لأهل الطلب وإقبال عليهم ، لم يؤخذ عليه جور في قضية ولا قسم بغير سوية ولا ميل لهوى ، وقد ظل فقيهنا بعيدا عن مسرح الحياة العامة وأضوائها إلى أن ظهرت شخصيته في مناسبة معروفة في يوم مشهود .

لقد أقبل ملوك الروم يحملون إلى الخليفة الناصر هدايا الإمبراطور قسطنطين وأخيه ، وجلس الناصر على كرسي الخلافة وتقدم الفقيه محمد بن عبد البر ليرحب بالضيوف نيابة عن الخليفة ولكن هيبة الموقف أخذته فذهب ما كان قد أعده ثم سقط مغشيا عليه عندئذ اتجهت الأنظار إلى أبي علي القالي صاحب كتاب الأمالي ، وكان ضيفا على الخليفة وافدا من العراق لينقذ الموقف لكنه بعد أن حمد الله وأثنى عليه لم يستطع إتمام ما بدأ ، وكان منذر بن سعيد حاضرا فقام بنفسه وأكمل افتتاحية أبي علي القالي وانطلق في بيانه كما ينطلق السهم من الرمية فما تلجلج ولا تلكأ حتى انتهى من خطبته ولفت بتصرفه ولباقته نظر الناس ، وقد علق المنصور على ذلك بقوله: والله لقد أحسن ما شاء ولئن أخرني الله بعد ذلك لأرفعن من ذكره ، واستدعى المنصور ابنه الحكم وأوصاه بأن يستخلصه لنفسه وأن يرفع شأنه فولاه قضاء قرطبة عام ٣٣٩ هـ ولبث قاضيا حتى أدركته الوفاة عام ٣٥٥ هـ .

لا يخشى في الحق أحدا :

ولقد اشتهر منذر بأنه لا يخشى في الحق لومة لائم حتى ولو كان الخليفة نفسه ، ويحدثنا التاريخ أن الناصر احتاج إلى شراء دار لإحدى نسائه العزيزات عليه فاستحسن دارا في الربض الشرقي من قرطبة ، وكانت هذه الدار لأيتام في حجر القاضي يدعون أولاد زكريا ، وأرسل الخليفة من يقومها له وفقا لرغبته ثم أرسل إلى

وصي الأيتام يساومه على بيع ما تحت يده ، لكن الوصي اعتذر بعدم إبرامه العقد معه وأن ذلك موكول إلى أمر القاضي إذ لا يصح بيع ولا شراء إلا بإذنه ومشورته ، فأرسل الخليفة إلى القاضي بعض رسله ليتفاوضوا معه في بيع هذه الدار ، فلما وقف على جلية الأمر قال للرسل : البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه منها الحاجة الشديدة ومنها الغبطة ، أما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام في البيع أما الغبطة فهذا مكانها فإن أعطاهم الأمير فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع وإلا فلا ، وقد بلغ الرسل ذلك إلى الخليفة الذي تظاهر بالرغبة عن شرائها ولكن القاضي الفقيه خشي أن تتحرك رغبة الخليفة في شرائها ثانية فيلحق بالأيتام من الأذى والضرر ما لا يحبه الله ورسوله وأسرع بأمر ولي الأيتام ليهدم البيت ويبيع أنقاضه ، ففعل ما أمر به القاضي وباع الأنقاض بثمن يزيد كثيرا عن تقويم رسل الخليفة للبيت ، وحين سمع الخليفة بذلك أمر بحبس الوصي الذي أكد له أن القاضي هو الذي أمر بهدمها ، فبعث الخليفة إلى القاضي وسأله : ما الذي حملك على فعلتك التي فعلت ؟ فقال القاضي : إني لم أتي منكرا من العمل ولا وزرا في الحكم وإنما يا أمير المؤمنين عملت فيها بقول الله تعالى : (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) ورسلك لم يقوموها إلا بكذا وبذلك تعلق وهمك فقد قبض في انقاضها أكثر من ذلك وبقيت الساحة والحمام فضلا ونظر الله إلى الأيتام ، فلما استبان الخليفة الحق قال له : (نحن أولى من انقاد إلى الحق فجزاك الله خيرا ، وقد أكرمه الناس والمؤرخون بإطلاق لقب قاضي الجماعة عليه وأصبح خاصا به فإذا ما قيل قاضي الجماعة عرف أنه منذر بن سعيد .

يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ورجل إفريقيا البربري الملثم، قام بأعظم عمل عرفته إفريقيا وسجل التاريخ بالفخر والاعتزاز ذلك كله، ففي المغرب قضى على النزاعات المختلفة وجمع المسلمين حوله بعدله وسيرته تحت راية الإسلام حتى قال فيه أحد المؤرخين القدامى: (لم يبق في عصره نفاق ولا ظلم ولا سرقة)، وكانت المرأة تسير وحدها حاملة الذهب في جميع بلاد إفريقيا ولا تجد من يعترض سبيلها.

وفي الأندلس أوقف التدفق الأسباني الذي كان أكثر تحمسا للحروب الصليبية، ووقف لهم بالمرصاد ورد الأسبان إلى بلادهم مدحورين وحطم السياسة التي سارت عليها أوربا لشن حروب صليبية في الغرب، فخلص البلاد من عبث اللذين فرقوها، وسموا بملوك الطوائف، ولم تأخذه في الله لومة لائم فحمد المسلمون له ذلك لأنه جمع شمل المسلمين في شمال إفريقيا والأندلس، وقد استمد دستوره من القرآن الكريم والسنة النبوية ومن طريق السلف الصالح وتخلق بأخلاق النبي ﷺ وعاش زاهدا متقشفا ورعا متعففا طوال عمره الذي استمر مائة عام.

لقد كان صاحب دعوة وكان يلجأ إلى مشورة العلماء والفقهاء والقادة إذا حزبه أمر، وقد نال إعجاب المسلمين جميعا ورأى فيه حجة الإسلام الإمام الغزالي المثل الأعلى الذي طالما تمنى أن يكون عليه الحاكم المسلم، وقد أراد أن يذهب بنفسه إلى المغرب ليرى هذه المعجزة التي تحققت في عصر الضعف والتخاذل والفرقة.

لقد كان يوسف بن تاشفين أقوى رجل في وقته واتصل بالخليفة العباسي في بغداد ليضم صفوف المسلمين في جميع بقاع الأرض رمزا للوحدة التي دعا إليها ولم يتسم بأمير المؤمنين، وقد كان ظهور هذا الرجل في ساحة المغرب السبب في تأخير أخذ النصارى لجميع الإمارات في الأندلس أربعة قرون كاملة، واهتم يوسف بأمن البلاد فبنى المعسكرات لتكون نجدة لمن يحتاج إليها وأنشأ القلاع والحصون، ومن أغراض بناء مراكش أن تكون قاعدة للعسكر يحتشد فيها الجنود ليكونوا درعا لمن يستنجد بهم.

أخبار الأندلس:

بدأت أخبار الأندلس المؤلمة تصل إلى مراكش وتصف حال المسلمين في

الأندلس ، فقد أستولى النصارى على أملاك المسلمين وعاش المسلمون في الذلة والهوان وقتل الصغار وهتك الأعراض ، وحكام الطوائف خاذلون عاكفون على ملذاتهم وأ صبحوا يدفعون جزية متصاعدة يوما بعد يوم وهم خائفون من النصارى .

مجلس الجهاد :

اجتمع مجلس الجهاد المكون من الفقهاء والعلماء وشيوخ المرابطين ومعهم يوسف بن تاشفين وبحثوا الأمر حتى يتخذوا الخطوات المناسبة لإنقاذ المسلمين في الأندلس ، وفي الوقت نفسه الابتعاد عن المشكلات الداخلية لحكام الأندلس ، وقد شدد العالم الفقيه بن حزم النكير على هؤلاء الحكام وحمل عليهم مؤكدا أن هؤلاء الحكام المستبدين المستهينين بالقيم الإسلامية ضعفاء الإيمان وليس لهم هم إلا الاحتفاظ بالأراضي التي سلبوها قسرا ولو بالخروج على الدين .

وبدأت الحرب الصليبية في الأندلس وبدأت القوى النصرانية تجمع شملها وتوحد صفوفها ، وأتى المتطوعون من فرنسا وبلجيكا وإيطاليا وألمانيا للقضاء على المسلمين في الأندلس ونظروا إلى هذه المعارك على أنها حروب مقدسة وأ صبح حكامهم يطالبون بإخضاع المسلمين وإجلائهم عن الأندلس واضطر ملوك الطوائف إلى دفع الجزية وبدا للناس أن أيام المسلمين في الأندلس معدودة .

كان يوسف يقف على البحر ويمد طرفه بعيدا ثم ينظر إلى السماء ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقه إلى الجهاد ، وكان يقول : (أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر إلا أنا بنفسي وبعث عيونه لينقلوا له صورة طبيعية عن المواقع والأرض التي سيحلون بها ، وكان لا يثق بأحد من أهل الأندلس ولذلك فقد ذهب إلى الأندلس وهو مستقل استقلالا كاملا ولم يرتبط بأي حاكم ، وعبر مضيق جبل طارق الجيوش المجاهدة في سرية تامة وفوجئت الجزيرة بالقوات المرابطة تحيط بهم ، نزل يوسف على الجزيرة وهرع الناس من كل فج ليروا هذا الرجل الذي أرسله الله تعالى لإنقاذ الأندلس من الطغيان والظلم والفسوق ، ومن الجيوش النصرانية التي أ صبحت تأخذ الإمارات إمارة بعد إمارة ، وخرج إليهم أهلها بما عندهم من الأقوات وامتلأت المساجد بضعفاء المتطوعين .

لقد كان المعتمد بن عباد هو الأمير الذي ذهب إلى مراكش يستنجد بيوسف بن تاشفين وقال له: (جئتك احتسابا واعتصاما بالدين وقد أجرى الله الخير على يديك) ،

وقد اعتمد يوسف بن تاشفين على نفسه في كل أعماله وأعد ما يحتاج إليه من المغرب واتجه بجيوشه معلنا الجهاد على ألفونس وعصابته في طليطلة وحاصرها وأوقع الرعب في قلوب النصارى ، ثم اتجه المرابطون إلى غرناطة واستولوا عليها ودخلوا قصورها واستولوا على ما فيها من أموال وتحف ثم اتجه إلى إشبيلية وضرب الحصار حولها ثم دخل إشبيلية ثم قرطبة وهكذا .

معركة الزلاقة :

كان يوسف بن تاشفين قد كتب إلى سائر أمراء الطوائف يدعوهم إلى اللحاق به والمشاركة في الجهاد فتوافدوا إليه مسرعين وسار في خمسين ألف مقاتل ، وأخذت الجيوش مواقعها في بطحاء الزلاقة ، وقد بلغت أنباء المرابطين وعبورهم البحر إلى أسماع ألفونسو فاستعد للقاء جيش يوسف واستنفر النصارى من كل بلد من الأندلس وفرنسا ومن غيرهما وتحولت إلى حرب صليبية ، رفع فيها القساوسة والأساقفة الصلبان ، ونشرت الأناجيل ووثق ألفونسوا بالنصر ، واستعد في جيش قوامه ثمانون ألف مقاتل وأرسل جواسيسه ليأتوا بالأخبار ، وكان المختارون من جيوشه أربعون ألف دارع واعتز بذلك وقال : (بهؤلاء أقاتل الإنس والجن وملائكة السماء) وبدأت المعركة بين النصارى وبين جنود الأندلس ثم كانت المفاجئة أن يوسف بن تاشفين قد نزل بنفسه وانقض على جيوش العدو من الخلف وهجم على مؤخرة الأعداء وأدار فيهم القتل وكان صوت الطبول يشق عنان السماء فأصيب النصارى بالذعر حين ارتفعت نيران معسكر النصارى إلى عنان السماء وجاء ألفونسوا ودارت معارك رهيبة كانت خسائر النصارى فيها فادحة، لقد هزم النصارى وولوا الأدبار وفر ألفونسوا في خمسمائة من حاشيته ولكنهم كانوا مثخنين بالجراح ولم يبق منهم إلا مائة وقد جمع يوسف الغنائم ووزعها على الجميع ولم يأخذ لنفسه شيئا ، وقد أثرت معركة الزلاقة كثيرا في معنويات ألفونسوا وفقد كل أماله كما أن التكتل النصراني في أوربا أصيب بصدمة هائلة ، حينما وصلته رسائل ألفونسوا وعاد يوسف إلى بلاده بعد أن ترك جيشا قوامه ثلاثة آلاف ليكون تحت تصرف الأندلسيين وبذلك قضى يوسف بن تاشفين على مشاكل المسلمين ولم يتدخل في شئون ملوك الطوائف ، وهكذا أبقى يوسف الإسلام في الأندلس أربعة قرون أخرى بعد أن كاد ينتهي قبل هذه المعركة بسبب ترف الأمراء وحبهم للدنيا وبعدهم عن منهج الله ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

نشأته :

ولد في إشبيلية سنة ٤٦٨هـ وكان أبوه من أفاضل علماء الدولة وكبار أعيانها المتمتعين بالمكانة والوجاهة عند الأمير ، وتلقى أبو بكر ثقافته الأولى على يد أبيه وأستاذه السرفسطي وكان ذا مواهب ممتازة من الذكاء وسعة المدارك ودماثة الخلق التي تحلى بها هذا الناشئ الممتاز بكل ما يهيئه له نضوج رجولته المبكرة ، حتى قال عن نفسه : (حفظت القرآن وأنا بن تسع سنيين وبلغت ستة عشرة سنة وقد قرأت من الأحرف - أي من القراءات - نحوا من عشر بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه وتمرنت في الشعر واللغة) ، وبعد سقوط دولة آل عباد سنة ٤٨٥هـ خرج به أبوه إلى شمال إفريقيا فكان أول نزولهما في ثغر بجاية ثم إلى ثغر المحمدية حيث أخذ عن علمائها .

سفينته تتعرض للغرق :

ولما أبحر ومن معه من المهدية قاصدين السواحل المصرية تجددت لهم النكبة بهياج البحر عليهم فوقعوا في حادث جلل حتى لقد خرجوا من البحر خروج الميت من القبر كما يقول ابن العربي في ذلك وهم في جوع وفي عرى حتى وصلوا إلى بيوت بني كعب بن سليم فعطف الأمير عليهم وأطعمهم على يديه وسقاهم وأكرم مثواهم ، وسبب ذلك قصة طريفة هي : (كان الأمير يلعب الشطرنج مع صاحب له فوقف صاحبنا بإزائهم ينظر إلى تصرفهم من ورائهم فقال لأتباع الأمير في همس : الأمير أعلم من صاحبه فعظم في عيونهم وتقدم إلى الأمير من نقل إليه الكلام فاستبناه وسأله هل لك بما نحن فيه بصر؟ فقال : لي فيه بعض نظر سيبدو لك ويظهر حرك تلك القطعة ففعل ثم طلب منه أن يحرك أخرى وما زالت الحركات بينهما تترى حتى هزمهم الأمير، فقالوا له : ما أنت بصغير ، وفي أثناء تلك الحركات ترنم بن عم الأمير منشدا :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه * وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال لعن الله أبا الطيب أو يشك الرب ؟ فقال له أبو بكر في الحال ليس كما ظن صاحبك أيها الأمير إنما أراد بالرب هنا الصاحب ، يقول : ألذ الهوى ما كان المحب فيه من الوصال وبلوغ الغرض من الآمال على ريب فهو في وقته على رجاء لما يأمله وثقاء لما يقطع به كما قال :

إذ لم يكن في الحب سخط ولا رضى * فأين حلاوات الرسائل والكتب ؟

وأخذ يتحدث إليهم في شتى الأغراض فأقبلوا عليه يتعجبون من حديثه ويسألونه كم سنك ؟ فأخبرهم بحاله وبأن أباه معه فاستدعاه الأمير وأخذهما إلى منزله الخاص وخلع عليهما فأنقذهما ذلك مما هم فيه ، ثم صار والده إلى بيت المقدس) .

صورة من علمه :

في بيت المقدس التقى بالإمام الطرطوشي وهو من علماء المالكية الأندلوسيين ، خرج من الأندلس إلى المشرق ، ويحكي ابن العربي عن لقائه مع شيخه الطرطوشي وعن حديث أبي ثعلبة المرفوع كما رواه الترمذي وأبو داوود : " إن من ورائكم أياما للعامل فيها أجر خمسين منكم فقالوا منهم قال بل منكم أي من الصحابة لأنكم تجدون على الخير أعوانا وهم لا يجدون عليه أعوانا " وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسروا الإسلام وعضدوا الدين وأقاموا المنار وفتحوا الأمصار وحموا البيضة ومهدوا الملة ، وقد قال النبي ﷺ : " لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " فتراجعنا القوم ونحصل ما أوضحناه في شرح الصحيح كتاب النيرين في الصحيحين وخلاصته : (أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، أعمال سووها من فروع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم وخلصها من الشوائب والبدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام وهو أيضا انتهاؤه حتى إذا قام به قائم مع احتوائه بالمخاوف وباع نفسه في الدعوة إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان عليه لمن كان متمكنا منه معنا عليه بكثرة الدعاء إلى الله) .

في بغداد يوسع ثقافته :

سار أبو بكر إلى بغداد مارا بدمشق حيث أقام بها فترة وأخذ عن علمائها ووصل إلى دار الخلافة العباسية في بغداد وكان الخليفة هو المقتضى بالله ، ثم بويع بعده للمستظهر بالله أحمد وكان مهذبا مثقفا ضليعا في الأدب بليغ التوقيعات إلا أن زمنه كثر فيه الاضطرابات ، وفي هذا الجو أخذ ابن العربي في توسيع ثقافته وتلقي العلوم عن أهلها حتى ورع في علوم السنة وتراجم الرواة وأصول الدين وأصول الفقه وعلوم العربية والآداب ، وكان يتردد على مجالس العلم العامة التي تعقد في دار وزير

الخليفة ابن جهير الذي كان يسمى بالوزير العادل .

مع الغزالي :

لقي ابن العربي حجة الإسلام الغزالي حين كان يدرس في النظامية وفي مجالسه العامة ، ثم لقيه مرة أخرى في صحاري الشام وهو في طور أخر يقول في ذلك : (رأيت الغزالي في البرية وبيده عكازه وعليه مرقعة وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته في بغداد يحضر دروسه أربعمائة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم فدنوت منه وسلمت عليه وقلت له : يا إمام أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا ؟ فنظر إلي شزراً وقال : لما طلع بدار السعادة في تلك الإرادة وجنحت شمس الأصول في مغارب الأصول :

تركت هواي وسعدي بمنزلي * وعدت إلى تصحيح أول منزل

ونادت بي الأشواق : مهلا فهذه * منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت لهم غزلا دقيقا فلم أجد * لغزلي نساجا فكسرت مغزلي

شرب من ماء زمزم :

في سنة ٤٨٩ هـ ذهب ابن العربي مع أبيه إلى الحرمين الشريفين فحج بيت الله الحرام وأخذ عن علمائه ومما تحدث به ابن العربي عن مكة قوله: (كنت بمكة مقيما في ذي الحجة عام ٤٨٩ هـ وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرا وكلما شربت نويت بما شربت العلم والإيمان ففتح الله تعالى لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم ونسيت أن أشربه للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما ولم يقدر، فكان صفوي للعلم أكثر منه للعمل، وأسأل الله تعالى الحفظ والتوفيق برحمته)، وعاد ابن العربي إلى بغداد مع أبيه فلبس فيها نحو عامين ثم خرجا متجهين إلى الشام وفلسطين ثم إلى الإسكندرية حيث توفي أبوه، ثم رحل عائدا إلى الأندلس عام ٤٩٣ هـ .

تحول منزله إلى جامعة :

وصل ابن العربي إلى أشبيلية فاستقبل العلماء ورجال الثقافة والأدب فيها وما جاورها من عواصم الأندلس هذا الغائب القادم بعلوم المشرق استقبالا لا نظير له وقصده طلاب العلم وأذكياء الأندلس من كل حدب وصوب ، وتحول منزله إلى جامعة وعقدت له حلقات الدرس في الجوامع ، وتلقى طائفة من علماء الإسلام العلم على يديه ومنهم القاضي عياض ، وبقى ابن العربي يفتي ويدرس أربعين سنة وقبل أن يتولى

القضاء صدر له التقليد من السلطات الرسمية بأن يتولى منصب المشاور للقضاء ، وكان لا يباح لعالم في الأندلس أن يفتي إلا إذا استظهر الموطأ والمدونة أو أن يحفظ عشرة آلاف حديث ويميز حينئذ بلبس القلنسوة ويقال له المقلنس .

وقد أجمعت كلمة الذين تحدثوا عنه أنه كان في القضاء مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء ، قال عنه القاضي عياض : (نفع الله به أهل أشبيلية لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه وكانت له في الظالمين صورة مرهقة مع الرفق بالمساكين والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واستمر في هذه المدة على إلقاء دروسه مع القيام بأمر القضاء ومواصلة التأليف ، ثم كثر حاسدوه فأثاروا عليه المشكلات ، وقد مر بتجربة قاسية أشار إليها في كتابه العواصم من القواصم حيث قالوا : " ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يكن في الأرض منكرا واشتد الخطب على أهل الغصب وعظم على الفسقة الكرب فتألبوا وألبوا وتأمروا عليه فاستسلمت لأمر الله وأمرت كل من حولي ألا يدافعوا عن داري وخرجت على السطح بنفسي فعاثوا علي ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار وكان الذي حملني على ذلك ثلاثة أمور :

أولا : وصية النبي ﷺ بالكف عن القتال في الفتن

ثانيا : الاقتداء بعثمان بن عفان ﷺ

ثالثا : سوء الأحدوثة التي فر منها رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي ، إشارة إلى قوله ﷺ : (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) وذلك لو قتل عبد الله بن أبي.

وفي هذه الثورة نكب ابن العربي ونهبت كتبه كلها وصرف عن القضاء وتحول مؤقتا إلى قرطبة وكان له فيها تلاميذ ومريدون وقد تفرغ بعد ذلك للعلم والتأليف .

مؤلفاته :

له مؤلفات كثيرة عد منها المؤرخون خمسمائة وثلاثين مؤلفا منها كتاب أنوار الفجر في تفسير القرآن ويبلغ حجمه ثمانين ألف ورقة وقد ألفه في عشرين سنة ، ومع علمه وفضله كان أديبا ، وفي أخر أيامه كان يتردد عليه الأدباء يساجلهم الأدب والشعر بقريحة وقادة ، وقد دخل عليه الأديب ابن صارة وبين يدي القاضي أبي بكر بن العربي نار على رمادها فقال لابن صارة قل في هذه ، فقال :

شابت نواصي الدهر بعد سوادها * وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لابن العربي أجز ، فقال :

شابت كما شبنا وزال شبابنا * فكأنما كنا على ميعاد

كتاب العواصم من القواصم :

لعل أشهر كتبه كتاب العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ وتحدث المنافقون واليهود أحاديث كثيرة فيها أكاذيب عن الصحابة رضوان الله عليهم ، فكان ابن العربي يأتي بالكذبة ويسميها قاصمة ثم يأتي بالحقيقة ويسميها عاصمة .

وكان لذلك الكتاب أثر كبير في تبرئة الصحابة رضوان الله عليهم وفي جعل المسلمين يتحرون الحقائق في كل ما يسمعونه حتى يسيروا في طريق الأمن والأمان ، ونحن في حاجة إلى كثير من مثل هذا الكتاب الرائع .

القائد المسلم الإنسان

مظفر الدين كوكبي

تولى مظفر الدين كوكبي إمارة أربل بعد أن توفى أخوه زين الدين وذلك بعد أن أرسل إليه أهالي أربل يستدعونه ليكون أمير عليهم لحسن سيرته ، وظل بها حتى استدعاه صلاح الدين ليواصل معه حرب الصليبيين فظل مظفر الدين معه حتى وفاته سنة ٥٨٩ هـ .

وقد أنشأ مظفر الدين على التل الذي تقوم عليه مدينة أربل قلعة أثارت إعجاب الجوابين فقد جعل التل من الفخامة بحيث كان الإنسان يراه وهو على بعد ساعات منه، أما القلعة فكانت لا تقل فخامة وعظمة عن قلعتي حمص وحلب المشهورتين بل كانت فوقهما في الضخامة والفخامة ، وهذا هو الذي جعل المعاصرين وغير المعاصرين يقولون إن أربل قد وصلت أوج عظمتها سنة ٦٠٠ هـ وقد زاد عدد سكانها ، ووفد إليها كثيرون من البلاد المجاورة لها بعد أن أصبحت الحياة طيبة فيها لما عرف عن حسن سياسة مظفر الدين وعدالة حكمه وتشجيعه للعلماء ، فأقيم في السفح المنازل والأسواق والقيسارات .

وقد زار ياقوت صاحب معجم البلدان مدينة أربل فوصف ربض قلعتها ، وهو الجزء الذي عمره مظفر الدين بقوله: في ربض هذه القلعة في عصرنا مدينة كبيرة عريضة طويلة قام بعمارتها وبناء سورها وعمارة أسواقها وقيسارتها الأمير مظفر الدين كوكبي فأقام بها وقامت بمقامه وصار له هيبة وقاوم الملوك ونابذهم بشهامة وكثرة تجربة حتى هابوه وقصدها الغرباء ووطنها أكثرهم حتى صارت مصرا كبيرا من الأمصار.

قال مظفر الدين لبعض خواصه : لما أخذت أربل ألبت على نفسي أن أقسم إيرادها إلى ثلاثة أقسام (قسم في أبواب البر – وقسم للجند وما يخصني – وقسم أدخره لعدو يقصدني) وقد عدل في القسم الثالث فقد كان ينفعه في الدفاع عن بلاده إذا طرقها مغير وأعطى الجند حقوقهم كاملة ، وإن كان قد خاف على نفسه فلم ينفق عليها إلا القليل ، وأما الكثير فإنه كان ينفقه على أبواب البر مع القسم الأول لأنه وجد أن القسم الذي خصصه لأبواب البر لا تكفي لإسعاد شعبه .

قالت زوجته ربيعة خانون : إن مظفر الدين كان يلبس ثوبا يساوي خمسة دراهم

من خام ، فقالت له : لو لبست ألين من هذا فإن بدنك لا يحتمل الخشن ، فقال لها أيهما أصلح وأكثر أجرا أن ألبس ثوبا بعشرة دراهم أو ألبس ثوبا بخمسة دراهم وأتصدق بخمسة على فقير أو مسكين ؟

ومن أنواع البر التي كان يضفيها على الفقراء والمحتاجين توزيع الخبز عليهم كل يوم وتوزيع الأكسية فكان يعطي لكل فقير كسوة شتوية وأخرى صيفية في كل سنة ، وكان ينتهز فرصة عودته من غزوة أو من سفر حيث كان الفقراء يجتمعون حول داره لاستقباله وتهنئته بسلامة العودة فكان يكسوا كل واحد منهم ومع الكسوة مبلغ من المال حسب حالة كل شخص من الفقراء .

وكان الاحتفال بمولد النبي ﷺ يملأ عليه نفسه ولذلك كان يحتفل به في كل عام احتفالا عظيما ينفق فيه الأموال الطائلة حتى يصل إلى كل يد ، فكان هذا الاحتفال يعتبر أعظم مراسم مدينة أربل ، وكان الشعب يستمتع بالطعام والشراب والكسوة إلى جانب حلقات للاستماع إلى سيرة النبي ﷺ وحلقات القرآن الكريم التي يرتلون فيها آي الذكر الحكيم ويجودون ، وحفلات الذكر حيث يقوم الذاكرون بطريقتهم الصوفية في حلقات يذكرون الله تعالى بطريقتهم الخاصة في حلقات تحت إنشاد المنشدين وألحان الزامرين وضاربي الدفوف ، وكان المسلمون في البلاد المجاورة لأربل يفدون إليها للاستمتاع بهذا الاحتفال فكان الناس يفدون إليها على اختلاف طبقاتهم ، وكذلك الفقهاء والمحدثون والأدباء والشعراء والتجار ، حتى الفقراء كانوا يفدون مع الوافدين لينالوا من بر مظفر الدين ، فكانت المدينة تمتلئ بالناس وتضيق بمن فيها طوال أيام الاحتفال ، وكان مظفر الدين يشترك معهم في جميع مظاهر الاحتفال ودون تكلف وكأنه واحد منهم ، وكان الاحتفال يبدأ من شهر المحرم من كل سنة حيث يقيم مظفر الدين قبته وكذلك كل أمير وكبير وكل له قبته الخاصة به ، وكانت هذه القباب تمتد على طول الطريق من باب قلعة المدينة حتى باب الخانقاه المجاور للميدان ويستمر نصبها حتى أوائل شهر صفر ثم يبدؤون في تزينها بالأقمشة الفاخرة ذات الألوان الجميلة المختلفة ،وتشمل القباب كل أنواع الملاهي والمسليات ، وبذلك يتيسر للناس فرص كثيرة لمشاهدة أكثر من فرقة لنوع واحد من الملاهي فيه ، وكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر إلى مكان الاحتفال وينتقل بين القباب ويشعر الشعب أنه يشاركهم فرحتهم في هذه المناسبة ، وكان يشترك مع المتصوفين في حلقات الذكر التي كان شغوفا بها ويظل في الخانقاه حتى صلاة الصبح وهكذا إلى أن

تجيء ليلة المولد .

ويستمر الناس في الفرحة والاستمتاع بالاحتفال من شهر صفر إلى ما قبل ليلة المولد بيومين ، وعندئذ تجمع الإبل والأبقار والأغنام المعدة للذبح لإطعام الناس ، وبعد ذبحها يكون الطباخون مستعدين بقدورهم لتلقي اللحوم لطبخها مع ألوان مختلفة من الأطعمة ، وكذلك الشواؤون لشي اللحوم والطيور ، ويستمر الذبح والطهي طوال يومين حتى إذا كانت ليلة المولد يصلي مظفر الدين صلاة المغرب في القلعة ، ثم ينزل في موكب كبير إلى الخانقاه يحيط به حملة الشموع من الأمام ومن الخلف وعن اليمين وعن اليسار ، فإذا كانت صبيحة يوم المولد أنزلت الخلع (هدايا من الملابس) التي أعدها مظفر الدين للإهداء من القلعة إلى الخانقاه على أيدي رجالهم من الصوفية ثم يوزعها عليهم .

الحجاج :

وكان مظفر الدين يعمل على تهيئة أسباب الراحة للحجاج في الطريق ، فكان يسير معهم سبيلا من الماء ومندوبا مزودا بكل ما يحتاج إليه الحجاج في الطريق ، وكان يرعى المرضى عناية خاصة وكذلك الأرامل والأيتام واللقطاء والعميان فأنشأ لهم المصحات والملاجئ .

وقد جمع المرضى بالجزام وبنى لهم دارا يقيمون فيها ، وجهزها بكل ما يحتاج إليه المريض من طعام وشراب وعلاج ، ثم جعل لكل مريض خادما خاصا يقوم على رعايته وخدمته ، كما اهتم مظفر الدين بالعميان من أبناء أربل وغيرها فبنى لهم دارا يقيمون فيها وجهزها بكل ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب وملبس وخصص لكل واحدا منهم خادما يقوم على خدمته ، وكان يزورهم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وكان يدخل على كل واحد منهم ويسأله عن حاله وكان يمزح معهم حتى يمر بهم جميعا ثم يهب لهم ما تجود به يده من مال علاوة على ما هو مقرر لهم ، وكان هذا يثلج صدورهم ويجبر قلوبهم .

دار الأيتام :

واهتم مظفر الدين بالأيتام بنين وبنات من الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم وأصبحوا بلا عائل ، وبذلك حفظهم من خطر التشرد ومفاسده فبنى لهم ملجأ جمعهم فيه وزودهم بكل ما يحتاجون إليه من مقومات الحياة ، كما عين فيه المشرفات على

تربيتهم ، وكان يزورهم بين الحين والحين في فترات متقاربة ويضفي عليهم من عطفه وأبوته ، وكان يجلس بينهم ويحمل اليتيمات ويداعبهن ويقضي لهن حاجتهن ، وإذا بلغت سن الزواج كان يختار لها الزوج الذي يناسبها ويزوجها منه وينفق على حفل زواجهما من ماله الخاص ، أما الذكور فكان ييسر لمن يكبر منهم العمل ويقدم لهم المساعدات لاستقبال حياتهم الجديدة .

دار اللقطاء :

وبنى مظفر الدين ملجأ للقطاء زوده بالمرضعات فكان كل لقيط يعثر عليه يحمل إلى هذا الملجأ فيسلمه إلى إحدى المرضعات لتقوم على إرضاعه وتربيته، وبهذا العمل الإنساني حفظ مظفر الدين أرواحا كان مصيرها الهلاك .

دار الأرامل :

وقد بنى للأرامل اللاتي ليس لهن عائل دارا يؤوين إليها وأعدها بكل ما يحتجن إليه ويلبي كل رغباتهن وكانت نفقات هذا الدار مائتي ألف دينار سنويا .

دار الضيافة :

وقد بنى مظفر الدين أيضا دارا للضيافة وقد خصصها لمن يفد إلى أربل للتجارة أو لمصلحة من المصالح أو للمسافرين الذين يعبرون أربل وهم في طريقهم إلى البلاد التي يقصدونها ، وقد زود هذه الدار بكل ما يحتاج إليه الضيف في إقامته من مأكل ومشرب ومكان للنوم ، وألحق المطابخ بالدار لإعداد الأطعمة والأشربة للضيوف ، وخصص للدار مائة ألف دينار سنويا ، وكان كل وافد يقيم في الدار ما شاء له أن يقيم ، وقد كان يجد الأمن والطمأنينة على نفسه وعلى ماله ، وكان يدفع لكل ضيف فقير يعزم على مغادرة أربل نفقة لسفره كل على حسب حاجته ، وكانت المدينتان المقدستان مكة والمدينة محل رعاية مظفر الدين وعنايته ، فكان يرسل إلى فقرائها كل سنة غذاء وكساء بما قيمته ثلاثون ألف دينار توزع عليهم سوى ما كان يعطيه لمن أخنى عليه الدهر بعد عز ومنعه ، فكان هؤلاء يعطيهم سرا صونا لماء وجوههم من مذلة السؤال وضنا بكرامتهم أن تمتهن .

وقد بنى في مكة والمدينة خزانات لخزن مياه المطر حتى توفر لسكانها الماء على مدار السنة ، وكان ينفق عشرة آلاف دينار على السبيل وألف دينار برسم إجراء الماء إلى الخزانات .

وكان مظفر الدين يرسل قواته إلى الصليبيين مرتين في السنة لشراء حرية عدد من المسلمين المأسورين عندهم ، وقد بلغ ما كان يدفعه كل سنة من المال ثمنا لحرية إخوانه في الدين مائة ألف دينار في السنة ، وقد بلغ عدد الأسرى المسلمين الذين خلصهم من الأسر مدة حكمه ستون ألف أسير ما بين رجل وامرأة ، وكان إذا نفذ منه المال باع ما عنده من المجوهرات واشترى بها حرية الأسارى .

وكان الأسير يختار بلده وأهله وكان يزوده بالمال اللازم حتى يبلغ أمنه، ومن يرغب في الإقامة في أربل كان يأخذه إليها ، وكان مظفر الدين يقوم بكل ما يحتاج إليه من مسكن ومطعم وكساء وبذلك حفظهم من التشرد والضياع .

المدارس :

كان بأربل عدد من المدارس منها مدرسة سميت باسمه لتدريس مذهب الشافعي والحنفي وكان يدرس فيها أيضا التفسير والحديث والنحو وقد نالت شهرة واسعة فاقت بها المدارس كلها ، وقد تخرج من هذه المدرسة عدد كبير ، وإلى جانب مدرسة مظفر الدين كانت هناك المجالس والندوات الدينية والأدبية ، وظل مظفر الدين يحكم مدينة أربل نصف قرن من الزمان حتى جاوز عمره الثمانين عاما ، وقد فارق الحياة في الثامن عشر من رمضان سنة ٦٣٠ هـ بعد أن اطمأن إلى أنه وضع إمارته في يد أمينة هي يد الخليفة المستنصر بالله .

عالم من طراز خاص

عز الدين بن عبد السلام

كان في مطلع شبابه فقيرا ، وكان لفقره يبيت في مدرسة الكلاسة وهي تقع بين المسجد الأموي وقبر صلاح الدين بدمشق ، وكانت تغلق أبوابها ليلا ويبقى وحده فيها فاضطر في ليلة باردة إلى الاغتسال ولم يجد إلا بركة المدرسة فغطس ونام ، ثم عاوده الاضطرار مرة ثانية إلى الاغتسال فغطس في البركة مرة ثانية وفي هذه المرة أغمى عليه من شدة البرد ، فشكا ذلك إلى شيخ في المدرسة فقال له : لو كنت عالما لما أقدمت على ضرر نفسك ولعلمت أن التيمم يغني عن الغسل إذا كان الغسل يؤدي إلى مرض .

ومنذ ذلك اليوم أقبل على طلب العلم بهمة ونشاط يسهر الليل كله فلم تمض عشر سنوات حتى صار أحد أفذاذ العلماء وأعلام الدنيا ، وكان مع علمه زاهدا في الدنيا يراها أهون من أن يحرص عليها فلم يستعبده جاه ولا مال ولا امرأة ولذلك فقد كان عزيزا على نفسه جريئا على الأمراء والملوك .

الملك خائن :

ولي القضاء في دمشق كما ولي خطابة الجامع الأموي وكان يقول كلمة الحق لا يخاف في الله لومة لائم وكان يحضر خطبته في الجامع الأموي الملوك والأمراء ، وقد حدث أن وقع خلاف بين الملك الصالح إسماعيل في الشام وابن عمه ملك مصر فاستعان الملك الصالح بالإفرنج وحالفهم على ابن عمه وأعطى الإفرنج بلدين من بلدان المسلمين فغضب الشيخ عز الدين وقام في الجمعة التالية يخطب وقد ذم في خطبته موالاة الأعداء وقبح الخيانة ، وفي الخطبة الثانية لم يدع للملك كالعادة مع أن الملك حاضر في المسجد ، بل أعلن أن الملك خائن وأن الخائن لا ولاية له ، وأعلن إسقاطه من الحكم ولم يبال بطش الحاكم ولا سطوته ، فما كان من الملك إلا أن قبض على الشيخ وضج الناس وتكلم العلماء ، فأرسل الملك إلى الشيخ من يقول له : أن الملك يعفو عنك بشرط أن تقبل يده ، قال الشيخ للرسول : يا مسكين والله ما أرضى أن يقبل يدي فضلا عن أن أقبل يده .

حبس الشيخ وأرسل إلى الجبهة حيث وضع في فسطاط قريب من الملك ، ومرة

كان الشيخ يقرأ القرآن في محبسه وعند الملك وفود الإفرنج فقال لهم : أتسمعون هذا القارئ ؟ إنه أعظم قساوسة المسلمين وقد حبسته لإنكاره تسليمي الحصون لكم وعزلته عن منصبه ، قالوا : والله لو كان قسيسنا لغسلنا رجليه و شربنا ماءهما .

أخطأت في الفتوى :

ثم أطلق صراح الشيخ فسار إلى مصر فأكرمه ملكها وولاه الخطابة والقضاء. فانقطع إلى التدريس والإملاء والتأليف ، وكان وفيا للعلم حساس الضمير لا يبال بكلام الناس ما دام في ذلك رضاء الله تعالى ، ومرة أفتى رجلا لا يعرفه في مسألة ثم ظهر له أنه أفتى خطأ ، ترى ماذا يفعل ليصحح هذا الخطأ ؟ أخرج مناديا ينادي في شوارع مصر أيها الناس من أفتاه أمس عز الدين بن عبد السلام في مسألة كذا فليعلم أن الفتوى خطأ وليأت ليسمع الجواب الصحيح ، ولعله لذلك يسمى سلطان العلماء .

أمراء للبيع :

كان حكام مصر من المماليك ونظر الشيخ فوجدهم لا يزالون في نظر الشرع عبيدا فكيف يحكمون ؟ فأعلن بوصفه القاضي أنهم سيباعون بالمزاد العلني وكان نائب السلطنة من المماليك فشكوه إلى السلطان فنهاه فلم ينته ، فقال له السلطان كلمة غليظة ، فما كان من الشيخ إلا أن حمل أمتعته على حمار وأركب أهله على حمار أخر وخرج من مصر قاصدا الشام ، وسمع أهل مصر بذلك فخرجوا وراءه بالضجيج والعويل وزلزلت مصر ، وأسرع من يقول للسلطان تدارج ملكك لئلا يذهب بذهاب الشيخ ، فلحقه فأرجعه وأجابه إلى طلبه ، ولم يعجب هذا أحد كبار المماليك فأمسك سيفه وذهب ليقتله في بيته وقرع الباب ففتح له الشيخ فلما رآه سقط السيف من يده ، وتولى الشيخ بيع أمراء المماليك في سوق العبيد .

أردت أن أهينه :

في يوم عيد خرج الملك الصالح أيوب إلى مصلى العيد والعسكر مصطفون بين يديه ووجوه المملكة يسيرون وراءه والأعلام تلوح على رأسه والأمراء يقبلون الأرض أمامه ، وإذا بالشيخ عز الدين يخرج إليه من باب مدرسة ويقول له : يا أيوب فالتفت السلطان مندهشا ووقف الموكب فقال الشيخ ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور ؟ قال الملك : هل جرى ذلك ؟ قال الشيخ : نعم خمارة كذا يباع فيها الخمر وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، قال الملك : يا شيخنا

هذه من زمان أبي ، قال الشيخ : أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا ؟ فأمر السلطان بإغلاق الخمارة من ساعته .

فلما دخل المدرسة سأله تلميذه الباجي العظيم : يا شيخنا لما فعلت ذلك؟ قال : يا بني رأيته في تلك النعمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه ، قال الباجي : يا شيخنا أما خفته ؟ قال الشيخ : يا بني تصورت هيبة الله فصار السلطان أمامي كالقط .

الشيخ في معركة عين جالوت :

بدأ التتار زحفهم بقيادة ملكهم جنكيز خان الجزء الشرقي للعالم الإسلامي إيران وتركستان حتى وصلوا إلى بغداد وقاموا بتدميرها وإبادة علمائها سنة ٦٦٥ هـ واستمر زحفهم نحو الغرب وأرسلوا إلى ملك مصر قطز يطلبون منه التسليم ، وقالوا في رسالتهم : (انظر ... فاتعظوا بغيركم وأسلموا لنا أمركم فنحن لا نرحم من بكى ولا نرِقُّ لمن شكر ...) وعزم قطز على القتال وجمع الفقهاء والقضاة والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه من أمر التتار وأن يأخذ من الناس ما يستعين به على الجهاد وحضر أصحاب الرأي دار السلطنة بقلعة الجبل وكان من بين الحاضرين الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

ما في أيدي الحكام أولا :

وهنا أعلن ابن عبد السلام رأيه في ذلك وهو رأي الشرع فقال : (أنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على المسلمين قتالهم وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء وتبيعوا ما لكم من الحوائض المذهبة والآلات النفيسة ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا) وقد وافقوا على كلامه ، ولكن الكلام شيء والتنفيذ شيء آخر .

وشرح الملك قطز إلى الشيخ صعوبة الأخذ من أموال الأمراء ، فقال الشيخ : لا أرجع في فتواي لرأي ملك أو سلطان وذكره بالله وبالعهد الذي قطعه على نفسه أن يقوم بالعدل وينظر في حال المسلمين ومصلحتهم ، وأغلظ له في القول وقد أغرورقت عينا الملك قطز بالدموع وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلا : بارك الله لنا ولمصر فيك وإن الإسلام ليفخر بعالم مثلك لا يخاف في الحق لومة لائم .

الشيخ يشرف على التعبئة المعنوية :

وقد عهد الملك قطز إلى الشيخ عز الدين بالإشراف على التعبئة المعنوية فعمل على تحريك القلوب ببعث الإيمان في النفوس فتسابق الناس إلى البذل والجود وكثرت الأموال فأعدوا العدة وجمعوا السلاح وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان واهتزت الأماكن بالهتاف والتكبير وشملت البلاد روح من التشوق إلى المثل العليا والتوبة من الذنوب والإقبال على الله وأصبح كل فرد يتمنى لو مات شهيدا وسارع أصحاب دور اللهو إلى إقفالها وأصبحت القاهرة كأنها محراب عبادة .

لقد كان الشيخ يعلم أن الشعب المصري ما دعي مرة إلى التضحية إلا لبى الدعوة مضحيا بكل شيء في سبيل الله لأن في نفسه الإيمان الذي يحول الهزيمة نصرا وصرخ الشيخ بأهل مصر : (يا أهل مصر اثبتوا واستعدوا وحاربوا وأنا أضمن لكم النصر) .

النصر في المعركة :

وبدأت معركة عين جالوت بين التتار وجيش المسلمين وكانت صيحة المعركة (وا إسلاماه) ، وكان قطز ينادي يا الله انصر عبدك قطز على التتار ، وكان الشيخ عز الدين يذكر الجيش بما ضمن الله لهم من النصر اعتمادا على قوله تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

ولأول مرة في تاريخ الزحف المغولي الذي امتد نصف قرن يخرج إليهم شعب ليقاتلهم قبل أن يصلوا أليه وينتصر عليهم انتصارا ساحقا ، وهم القوة الجبارة التي اعتادت أن تستسلم الشعوب لها قبل أن يصلوا إليها .

إن الإسلام يملك أكبر قوة نفوذ ويتمتع بأكبر موهبة في كسب الأنصار ولكنه يحتاج إلى علماء مثل الشيخ عز الدين بن عبد السلام وإلى ملوك مثل الملك المظفر قطز .

الشيخ جمال الدين

العالِم الذي أدخل التتار في الإسلام

العصر الذي عاش فيه :

الشيخ جمال الدين عالم فاضل عاش في القرن السابع الهجري وهو القرن الذي كانت كل الدلائل فيه تشير إلى أنه ليس في مصلحة الأمة الإسلامية ، بل لعل الناس قد ظنوا أنه أشأم قرن في تاريخ الإنسانية كلها .

ذلك لأن هذا القرن استهل بحادث جلل وهو زحف التتار الذي تم في عام ٦١٦ هـ على أكبر مملكة في ذلك الوقت وهي مملكة خوارزم شاه ، وقد ظهر التتار كجراد منتشر وسيطروا على العالم الإسلامي كله تقريبا ودمروا تركستان وإيران وأتوا على المدن الكبرى كلها حتى إنهم رفعوا مناور عالية من رؤوس القتلى وجثثهم وتسلقوا عليها وتحولت المدن إلى مقابر .

ويحدثنا المؤرخ بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٣٨ هـ عن هذا الحادث فيقول: (لو قال قائل إن العالم منذ أن خلق الله تعالى أدم إلى الآن لم يبتل بمثلها لكان صادقا فإن التاريخ ليس فيه ما يقاربها ولا ما يدانيها) ، كما يحدثنا المؤرخ الغربي ايدورد جيبون في كتابه سقوط وانحطاط الروم فيقول : (إن أهالي السويد اطلعوا على الزحف التتاري عن طريق روسيا ، وقد بلغ الرعب والخوف في قلوبهم مبلغا عظيما حيث أنهم لم يخرجوا للاقتناص كعادتهم إلى السواحل البريطانية) ، وفي ذلك يقول المؤرخ الغربي هيرلو ليرب في كتابه جنكيز خان : (إن السماء وقعت على الأرض فدمرت كل ما فيها) ، وقد أثر هذا كله على الروح المعنوية في المسلمين وأصبح المثل السائر المعروف في ذلك الوقت : (إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق) .

وقد حاول المؤرخ الغربي "توماس أرنولد" في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) أن يصور أوضاع المسلمين من الشعور بالهزيمة واليأس ، ذلك لأنهم المقصودون بهذه الهجمات وكانوا في ذلك الوقت منافسين قويين للإسلام وهما البوذية والمسيحية ، وكل من الديانتين تحاول أن تكسب قلوب هؤلاء الفاتحين القساة فيقول : (كل الدلائل كانت تشير إلى أن المسيحية ستنتصر لأنها لم تكن الخصم المناهض في هذه الحرب ، ثم إن المسيحيين والمسيحيات كانوا في قصور أمراء جانكيز خان فإذا كان هناك أمل

في اعتناقهم لدين ما فإن المسيحية كانت في مقدمة كل الأديان ولم يكن يشك أحد في اعتناقهم لها ، ولكن لم يكن هناك بد من أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده الخالد ، كما أنه استطاع بوساطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، وعلى الرغم من جميع المصاعب فقد أذعن المغول والقبائل المتبربرة أخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطئ أقدامهم)

وذلك يبين لنا أن دعاة المسلمين كان لهم الفضل الأكبر في تحويل التتار إلى الإسلام على الرغم من كل الظروف القاسية التي كان المسلمون يمرون بها والتي يوضحها أيضا المؤرخ الغربي "هورث" في كتابه تاريخ المغول فيقول : (وقد بلغ من سوء المعاملة التي لقيها هؤلاء أن رائضي الخيول من أهالي الصين كانوا إذا عرضوا أشباحا أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صور تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضاء يجره حصان قد ربط بذيله برقبة هذا الرجل ، إنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين .

الشيخ جمال الدين :

لقد حاول الداعية الإسلامي الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي الهندي أن يعرف شيئا أكثر عن الشيخ جمال الدين عن مولده وعن حياته وعن أساتذته ... الخ ، فلم يستطع أن يعرف شيئا من ذلك كله .

ولكن هذا الشيخ المغمور كان سببا في دخول التتار في الإسلام بفضل إخلاصه وورعه ، ويحكى في ذلك أن الشيخ جمال الدين كان متجها مع جماعة إلى جهة ما وكان التتار يكرهون الفرس ويبغضونهم ولا يقيمون لهم وزنا ، وكان الشيخ جمال الدين فارسيا ، وصادف ذلك يوم الصيد للأمير " تغلق تيمور " ولي عهد الأسرة الجغطائية وكانت مناسبة تتويجه قريبة ، ومن عادة الصيد أنه كان يضم في طيه أوهاما وخرافات وبخاصة عند الأمراء ، فلما رأى الأمير أن الشيخ جمال الدين ومن معه قد توغلوا في الأرض التي كان الأمير قد خصصها لصيده أصدر أمره بأن توثق أيديهم وأرجلهم وأن يمثلوا بين يديه لأنه تشاءم من وجودهم ، وسألهم في غضب : كيف تجرؤون على دخول هذه الأرض ؟ ولما علم أنهم من الفرس قال لهم : إن الكلب أعلى من أي فارسي وأشار إلى كلبه، ترى ماذا كان رد الشيخ بعد هذا الكلام ؟ وفي هذا الموقف ؟ ومع التتار اللذين ذاع صيتهم وانتشر في الأرض كلها ، إن الشيخ جمال الدين رجل

مؤمن واثق بالله تعالى لذلك فإنه لم يأبه لذلك كله بل إنه أجاب في هدوء. وقال : إننا لا يمكننا أن نحكم هذا الآن ، فسأله الأمير في سخرية : ومتى يمكن ذلك ؟ ، قال الشيخ : إن ذلك يتوقف على خاتمتي إذا كانت على الإيمان فأنا أحسن وأعلى من الكلب أما إذا لم أسعد بحسن الخاتمة فلا شك أن الكلب هو أعلى مني) .

وقد أثر هذا الكلام في صدر الأمير لأنه كان صادرا من قلب رجل مؤمن واثق بالله سبحانه وتعالى وقد جعل همه الدعوة إلى الله تعالى ، وما صدر من القلب دخل إلى القلب كما يقول الناس ، وفي هذه اللحظة وبدون توقف عرض الشيخ جمال الدين على الأمير " تغلق تيمور " قواعد الإسلام في غيرة وحماس وصور للأمير الكفر في صورة مروعة فأثر ذلك في نفس الأمير واقتنع بفساد معتقداته وحن إلى الدخول في الإسلام ، ولكنه خاف إن أسلم أن تضيع منه الإمارة ، فقال للشيخ جمال الدين : لكني إذا اعتنقت الإسلام الآن فلن يكون من السهل أن أهدي رعاياي إلى الصراط المستقيم فلتمهلني قليلا فإذا ما آلت إلي مملكة أجدادي فعد إلى ذلك لأن إمبراطورية جغطائي انقسمت في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة وظلت سنين طويلة حتى نجح " تغلق تيمور " في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه وجمع كلمتها كما كانت من قبل .

الشيخ رشيد الدين :

عاد الشيخ جمال الدين إلى بلده حيث مرض مرضا شديدا فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين سيصبح " تغلق تيمور" يوما ما ملكا عظيما فلا تنسى أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام ولا تنسى أن تذكره بوعده الذي قطعه لي ، ولم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان بعد أن استرد عرش إمبراطورية آبائه تنفيذا لوصية أبيه .

وقد حاول الشيخ رشيد الدين أن يظفر بلقاء الأمير ولكنه فشل على الرغم من الجهود المتنوعة التي بذلها ، وأخيرا لجأ لحيلة طريفة ، ففي يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان فأقلق بذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه ، إذ كيف يجرؤ إنسان على فعل مثل ذلك ، ومثل الشيخ رشيد الدين أمام الخان وكان شجاعا كأبيه فأدى رسالة أبيه ، وتذكر " تغلق تيمور " وقال : (حقا ما زلت أذكر ذلك منذ أن اعتليت عرش آبائي ، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك العهد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة ، وأخبره الشيخ رشيد الدين بأن ذلك الرجل هو والده وأنه قد توفي) .

الخان يدخل في الإسلام :

أقر الخان بالشهادتين فأصبح مسلما منذ ذلك الحين ولم يكتف الخان بذلك بل إنه دعا رئيس وزرائه وقال له : إنني أحمل في صدري سرا من زمن ، لقد وقع ما سمعته الآن مع الشيخ جمال الدين ولا زال له تأثير في قلبي فقد قضيت أن أسلم فما رأيك ؟ فقال له الوزير : أيها الملك إنني مسلم منذ زمن طويل وكنت أخفي إسلامي وقد اهتديت إليه في إحدى رحلاتي إلى إيران ، فدعا "رئيس الوزراء" الوزراء والأمراء إلى الملك وعرض عليهم الأمر فدخلوا جميعا في الإسلام ، وما أن تم ذلك الأمر حتى أسرع التتار في إيران إلى اعتناق الإسلام وأسلم الجميع في عدة أيام ، وكانت الأسرة التتارية الحاكمة في العراق قد سبقتهم إلى الإسلام ، وكانوا يتتابعون في قبول الإسلام ويتسابقون في عدد جم يبلغ مئات الآلاف ، وبدأ علماء الإسلام يؤدون واجبهم نحو هذه المملكة الواسعة وتدبير شئون المملكة ، وطبعوا في نفوسهم توجيهات الإسلام للحياة وكفاءته الواسعة في تنظيم شؤون المجتمع والدولة ، ولماذا لا يفعلون ذلك وقد تحققت مرحلة الإيمان منذ أن دخل الملك والأمراء وبقية التتار في الإسلام .

لقد ظل دعاة الإسلام مشغولين بأداء رسالتهم في صمت من غير دعاية فهم لم يفقدوا الاعتماد على الله تعالى ولا الإيمان به ولا القوة الروحية ولا الثقة بنصر الله وهم لم يلاقوا الهزيمة الحقيقية التي تجعلهم يحسون باليأس والقنوط ، نعم لقد أصابت الهزيمة الملوك الفاسدين والمجتمع المريض أما بقية المجتمع الإسلامي والعلماء والدعاة الصامدون فقد كانوا على ثقة بنصر الله تعالى لأنهم ينصرون الله تعالى ، وبذلك استدرج هؤلاء العلماء ما لقيه المسلمون من هزائم سياسية وما واجهوه من إخفاق في مجال السياسة وقد دخل بفضل الله تعالى التتار في الإسلام من غير إعلان ، والمهم أن العالم كله فوجئ بإسلام التتار جميعا .

المستشرقون يتكلمون :

وقد أشار بعض المستشرقين الذين درسوا دراسة وافية مستفيضة إلى القوة الذاتية في الإسلام وإلى الدعاة الذين قاموا بواجبهم في أحلك الساعات ، ومن هؤلاء الدكتور "هتي" الذي قال في كتابه (قصة الإسلام) : طالما حدث أن الإسلام الديني قد أحرز نجاحا كبيرا في أحرج ساعات الإسلام السياسي ، كما أن الدكتور الهولندي

"لوكي كارد" قال في كتابه (الحضارة الإسلامية) : على الرغم من أن الإسلام أصيب بالانحطاط السياسي مرات كثيرة إلا أن الإسلام الروحاني ما زال متقدما نحو الأمام ، والمستشرق الشهير جب ألقى ذات مرة خطابا أمام جامعة أوكس فورد قال فيه : لم يشهد الإسلام أو الثقافة الإسلامية أن قوبلت بمنافسات شديدة ، ولكنها لم تنهزم على الرغم من ذلك لأن الأسلوب الصوفي وتفكير العلماء والربانيين أسرع في دعمها وتأييدها ومنحها قوة لم تصمد في وجهها أية طاقة مضادة .

ولد في عام ٨٣٦ هـ ويعتبر أصلب سلاطين العثمانيين وأشدهم بأسا وأقواهم عزيمة ، وقد سمي بالفاتح لأنه فتح مدينة القسطنطينية التي استعصت ثمانية قرون على فتحها ، وكان عمره أربعة وعشرين عاما ، وكانت عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد فتحت في عام ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م ، وقد جلس على العرش بعد وفاة والده وعمره عشرون عاما ، واستمر مرهوب الجانب صعب المراس طوال حياته ، وكان أعداؤه يهابونه إلى أن توفى في عام ٨٨٦ هـ .

كان محمد الفاتح كما يقول "درابر" يعرف العلوم الرياضية ويحسن تطبيقها على الفن الحربي ، وقد أعد لفتح القسطنطينية عدته واستفاد من كل ما في عصره من معدات حربية .

وكان محمد الفاتح من الطراز الذي يملأ الطموح جوانبه الفنية ، وكان فتح القسطنطينية حلمه الأكبر ، ولذلك فإنه بدأ يستعد لذلك الاستعداد الكامل من جميع النواحي ، وقد واجه أقوى وأعتى قوة رومانية ، ووقف أمام أعتى مدينة عرفها التاريخ .

قال البارون "كارادوفو" في كتابه (مفكروا الإسلام) في الجزء الأول عند ترجمته لمحمد الفاتح : (إن هذا الفتح لم يقيض لمحمد الفاتح بسبب ضعف الدولة البيزنطية بل إن هذا السلطان كان يستخدم كل ما في عصره من قوة العلم ، فقد كانت المدافع حينئذ حديثة العهد فعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ ، وانتدب مهندسا مجريا ركب مدفعا كان وزن الكرة التي يرمي بها ٣٠٠ كيلو جرام ، وكان مدى مرماه أكثر من ميل ، وقيل إنه كان يلزم لهذا المدفع ٧٠٠ رجل ليتمكنوا من سحبه ، وكان يلزم له نحو ساعتين من الزمن لحشوه) .

ولما زحف محمد الفاتح لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ثلاثمائة ألف مقاتل، ومعه مدفعية هائلة ، وكان أسطوله المحاصر للمدينة من البحر ١٢٠ سفينة حربية ومن قريحته سحب بعض سفن الأسطول من البر إلى الخليج وأزلقه على الأخشاب المطلية بالشحم وأنزل ٧٠ سفينة في البحر من جهة قاسم باشا .

وكان فتح القسطنطينية في الفترة التي أعقبت طرد المسلمين من الأندلس وقضت

على حضارة الإسلام المشرقة التي أضاءت لأوربا طريقها وفتح أفاقا واسعة للحضارة الإسلامية والعلم على العالم الغربي بخاصة حيث استفاد منها في نهضته الحديثة وجعلها أساسا شيد عليها حضارته كما أفادت البشرية كلها بصفة عامة .

وكان من خططه الحربية أنه في الهجوم على أية مدينة أو قلعة يعمل على حصارها وقطع الاتصال بينها وبين البلاد التي تساعدها ، ولذلك فإنه عندما عزم على فتح القسطنطينية بدأ يعقد اتفاقات سلمية مع المجر وغيرها حتى يضمن عدم مساعدتهم لعدوه ، ثم شرع في بناء قلعة حصينة على مضيق البوسفور ولا تزال موجودة حتى اليوم على الشاطئ الأوربي مقابل القلعة التي بناها بايزيد الأول على الشاطئ الآسيوي ، وبذلك استطاع التحكم في أضيق ممر مائي أمامه وضمن عدم عبور سفن من البحر الأسود لنجدة القسطنطينية ، وقد اشترك في أعمال البناء مع كبار رجال الدولة والقضاة والفقهاء ، وقد تزاحموا في نقل الأتربة والحجارة حتى انتهى العمل في هذه القلعة في ثلاثة اشهر فقط وخرجت على هيئة مثلث سمك جداره عشرون قدما ، وفي كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدما ، ونصب على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة صوبت نحو القناة لمنع السفن من المرور ، ثم عهد السلطان محمد الفاتح إلى أحد القواد من الإنكشارية ومعه أربعمائة للحراسة وأمره ألا يسمح لأية سفينة بتجاوز البوسفور إلا بعد أن تؤدي ضريبة المرور وإلا أطلقت عليها القذائف حتى تغرق .

ولكرم السلطان محمد الفاتح وفد عليه أمهر صناع المدافع في أوربا في ذلك الوقت وهو من أصل مجري ويسمى أديان ، وعرض عليه رغبته في مساعدة السلطان حربيا ، فأدرك السلطان حبه للمال فزاد في إكرامه وطلب منه صنع أكبر مدفع لم يعرف مثله من قبل ، فقال له : إني أستطيع أن أصنع لك مدفعا يدك أسوار القسطنطينية ولو كانت في مناعة أسوار بابل غير أني مهندس ولست جنديا فلا أعرف أين توضع المدافع ، فضحك السلطان محمد الفاتح وقال له : أنا جندي أكفيك هذه المهمة فقم أنت بعملك واترك لي عملي ، وفي خلال ثلاثة أشهر أتم أديان ومساعداه المهندسان التركيان صنع هذا المدفع الجبار إلى جانب مجموعة من المدافع الأخرى وكانت جميعها أسلحة ماضية في المعركة التي تمت بالاستيلاء على القسطنطينية .

القوة البحرية :

وقد أدخل محمد الفاتح القوة البحرية لأول مرة في الجيش العثماني ، وكان لا يخاف الناس ، ولا يتأثر بالفشل ، وكان يحرك حماس الجيش دائما بحديث الرسول ﷺ حينما يقول لهم أنكم أهل البشارة بهذا الفوز .

حيل حربية :

وقد بدأ محمد الفاتح في استعمال حيل حربية غير متوقعة ، فقد كان يمهد الأرض ويسحب عليها السفن التي بناها في مكان أخر لتكون بعيدة عن أعين خصومه الذين يراقبون حركته ، ثم يدخلها بهذا الأسلوب في الخليج الذي اندفع فيه الروم بسفنهم ، وكان يخادعهم حتى استطاع الاستيلاء على أماكن مهمة ومن ثم أدار المعركة ودخل في أماكن العدو .

ثم لجأ إلى حيلة أخرى يستدرج بها قطع العدو البحرية للقضاء عليها واحدة بعد الأخرى بالمدافع الأرضية التي جعلها تساند قوته البحرية ويستخدمها في الوقت المناسب ، وكان يغير من أساليبه لينهك قوة عدوه ويجعله يعيش في خوف متواصل ، فمرة يحرك عليهم البحر ليوهم الأعداء بأنه يقاتلهم في البحر ليصرف عنهم استعداداته الحربية ، ومرة يشكل قوة من رجاله ليحفروا ممرات تحت الأرض تتجاوز صور المدينة الحصين حتى يدخلهم فيها إلى المدينة من تحت أرجل الأعداء من حيث لا يتوقعون ، وثالثه نراه يكون قوة من الصاعقة لهدم الصور ، ومحاولة التسلق على الأعداء بالسلالم المصنوعة من الحبال ، ثم يفاجئهم بقلعة ضخمة مصنوعة من الخشب ومكسية بالجلود السميكة المبللة بالماء حتى لا تحترق بالنار عندما ترمى بقوة مضادة من اللهب يركب بأعلاها المنجنيق الكبير ، وفي داخلها وفي أعلاها أمهر الرماة في الجيش يساعدهم أشجع الجنود ، وقد جعلها مرتفعة حتى تعلو سور القسطنطينية ، ثم فكر في خطة أخرى جديدة وذلك برمي القذائف إلى أعلى حتى يتحطم السور وتسقط في قلب المدينة ، ولذلك أصبح أهل القسطنطينية في هم وقلق ، وأصبحوا يفكروا متى يداهمهم الخطر ؟ ومن أين ؟ وكلما ظن قادتهم أنهم عرفوا سرا من أسرار الحرب عند المسلمين وأسلحتهم وخططهم الحربية ثم أخذوا عدتهم إذا بهم يفاجئون بنوع جديد من الخطط وبسلاح جديد لم يعرفوا سره وأسلوبه ، إلى جانب التخطيط

الحربي الذي يدل على ذكاء السلطان ، ذلك لأنه أعمل فكره وأدخل تحسينات كثيرة على أسلحته فقواها وعلى الذخيرة فزاد مداها وعلى معنويات جنوده فقواها وربطها بهدفها الإسلامي العميق ولذلك فإنهم كانوا يتدافعون إلى الموت وإلى حب الشهادة في سبيل الله ، بقدر ما كان جنود الروم يتدافعون إلى الفرار لحب الحياة .

وكان للعلماء دور بارز في فتح القسطنطينية فكانوا يتلون على الجنود آيات الجهاد وما أعده الله تعالى للمجاهدين من حسن الجزاء ، وكانوا يقولون لهم : (لقد نزل محمد ﷺ عند هجرته إلى المدينة في دار "أبي أيوب الأنصاري" ، وقد قصد أبو أيوب هذه البقعة ونزل بها واستشهد تحت أسوار القسطنطينية وعمره ثمانون عاما ولا زال قبره يعرف بقبر الرجل الصالح) عندئذ تغلب اليأس والقنوط على الروم فوهنت عزائمهم وانهارت أعصابهم ، بينما المسلمون ازدادوا حماسا وارتفعت معنوياتهم فلم يظهر عليهم إلا التصميم على مواصلة الحرب والرغبة في الاستيلاء على القسطنطينية ، وقد أحسوا بأن موعد سقوطها قد حان ، ولذلك ارتفعت أصواتهم إلى عنان السماء بالتكبير والتهليل ، إلى جانب أصوات الفرح بقرب النصر ، وكان يتخلل كل ذلك همهمة بالدعاء والتضرع إلى الله وقراءة القرآن والصلاة التي تربطهم بخالقهم الذي يهيئ لهم أسباب النصر الذي رأوا بشائره في الأفق ، وفي هذا الجو سقطت مدينة القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م وكان عمر محمد الفاتح إذ ذاك ٢٤ عاما .

لقد دخل محمد الفاتح القسطنطينية منتصرا وقد أمّن أهلها واستعمل معهم أسلوبا فريدا في الرعاية والمحافظة عليهم كما هي عادة المسلمين دائما عندما ينتصرون فيعاملون غير المسلمين بالرفق والإحسان ، ثم زار كنيسة أيا صوفيا فوجد أحد المتعصبين منهمكا في تدمير أرضية المعبد فأسكته وأبعده بسيفه ثم خر السلطان ساجدا على الأرض وحثا التراب على رأسه شكرا لله تعالى واعترافا بفضله ، ثم اتبع السلطان محمد الفاتح سياسة سليمة قائمة على الحب والود ، فقد نقل العمال المهرة والتجار من أنحاء المملكة التركية إلى داخل المدينة وأعلن في رغبته في أن يعيش أتباع الدين الإسلامي والدين المسيحي في إخاء ومودة ، ولذلك استدعى الراهب اجنادبوس المتمسك بعقيدته الدينية وقام بتنصيبه بطريقا على القسطنطينية ، وكان يدعوه إلى قصره ليقضي معه ساعات طويلة في الجدل الفلسفي ، وسلمه عصا الأسقفية بنفسه ومعها كيس يحتوي على ألف دينار ذهبي وحصان عليه أفخم الأطقم ، كما أصدر مرسوما

منح فيه الأسقف حق التمتع بجميع الامتيازات والموارد والهبات التي كان يتمتع فيها في السابق ، ثم أعلن نفسه حاميا للكنيسة الإغريقية في وقت اشتدت فيه الصراعات الكنسية ، ولذلك أعلن القساوسة أنه اكتسب الحق الإلهي .

وبذلك تحولت القسطنطينية إلى قاعدة إسلامية بعد أن كانت شوكة في جنب الإسلام وخطرا على المسلمين ، بل وتحولت إلى حصن إسلامي وأصبحت قاعدة راسخة ينطلق فيها المسلمون إلى أوربا ، قاعدة تحمي ظهورهم وجيوشهم إبان تغلغلهم في أوربا .

وبعد فهاهو ذا التاريخ يبين لنا شخصية محمد الفاتح القائد المسلم الذي فتح القسطنطينية ، وكان هذا بداية عصر جديد لنشر الإسلام في أوربا ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

من أمجاد البطولات الإسلامية المنسية

موسى بن أبي الغسان

البطل المسلم الذي ظهر في الأندلس في القرن التاسع الهجري وقد عرف بفروسيته وكان يعمل دائما على إذكاء الروح الحربية وتنظيم الفروسية الغرناطية وتدريبها وقيادة السرايا إلى أرض العدو .

نعم لقد كان بطلنا يقوم بهذه الأعمال بينما كان الأمراء يملؤهم الضعف والخوف من الأعداء ، لقد أشرف فرديناند الخامس بجيشه على مرج غرناطة وأرسل إلى أميرها يدعوه إلى التسليم المطلق للمدينة ، وقال بطلنا في مجلس الأمير محمد الناصري : (ليعلم ملك النصارى أن المسلم ولد للجواد والرمح فإذا طمع في سيوفنا فليكسبها غالية ، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعا عنها من الحمم والقصور التي نغتنمها بالخضوع لأعداء الدين) ، وتحرك موسى في جراءة وشجاعة وقاد الفرسان متوجها إلى الحصون والقلاع النصرانية المجاورة لغرناطة ، وأشاعت جراءته وشجاعته الرعب بين النصارى ، وبدأت جيوش النصارى تأتي من كل مكان حتى ملأت محيط النهر الذي تقع عليه غرناطة من البر والبحر وفي كل اتجاه بل وأكثر من هذا فإن سفن النصارى قد رابطت في مضيق جبل طارق وما حوله لتحول بين وصول أي مدد إليها من مسلمي أفريقيا الذين كانوا يتعاطفون دائما مع مسلمي الأندلس حين يحدق بهم الخطر ويطلبون منهم النجدة ، وبقيت المدينة فترة طويلة تقاوم حتى دب اليأس في قلوب الناس داخل المدينة فأجمعوا أمرهم على التسليم ، ولكن بطلنا موسى بن أبي الغسان انفرد بالمعارضة وقال للمجتمعين : لم يحن الوقت بعض للكلام عن التسليم فلم تنضب كل موارد نابل وما زالت معنا فلنعمل على إثارة الأمل في نفوس الشعب ولنضع السلاح في يده ولنقاتل العدو حتى أخر نسمة ، ثم رفع صوته قائلا : أنه خير لي أن أحصى بين الموتى الذين ماتوا دفاعا عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها ، ولكن هذا الكلام لم يؤثر في نفوس الناس الذين كانوا قد تعبوا من طول الحصار ، وبدأت الاتصالات بين أمير غرناطة وبين فرديناند الخامس وأرسل فرديناند الشروط وأخرها أن تقدم غرناطة خمسمائة من أعيانها كفالة للإخلاص والطاعة ، وبكى المسلمون لهذا الشرط الجائر ، ولكن بطلنا قال : اتركوا أيها المسلمون العويل للنساء والأطفال أما نحن فرجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال

الدموع ولكن لتقطر الدماء ، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة ولكن ما زال أحدنا بقبر يستر رفاته فإنه لم يعدم سماء تغطيه وحاشى لله أن يقال أن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها ولكن الكلام لم يؤثر ، وحين هم الأمير بتوقيع المعاهدة صاح بطلنا قائلا : لا تخدعوا أنفسكم وتظنوا أن النصارى سيوفون بعهودهم ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم ، ثم غادر المجلس واخترق بهو الأسود عابسا حزينا مهموما وسار مجتازا راياتها الحمراء الخارجية دون أن يفوه بكلمة، ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه وركب جواده واخترق شوارع غرناطة حتى غادرها من باب البيرة وهناك بعيدا عن غرناطة وعلى ضفة نهر شتيل ، رأى عن بعد في مساء ذلك اليوم سرية من فرسان النصارى تبلغ خمسة عشر فارسا ورأوه على ضوء الشفق يعدوا فطلبوا منه أن يقف وأن يعرفهم بنفسه ولكن بطلنا لم يجب على ندائهم بل وثب في وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانتزعه من سرجه فألقاه على الأرض ثم انقض على الباقين وكانت ضرباته قوية قاتلة وتناولته الرماح والسيوف من كل جانب وأثخنته الجراح ولكنه لم يهن ولم يضعف وقد تمكن من إبادة نصف السرية النصرانية ولكنه في نهاية الأمر جرح جرحا خطيرا وسقط من على جواده بطعنة رمح وسقط جواده أيضا لكنه لم يستسلم بل ركع على ركبتيه وانتزع خنجره وأخذ يناضل عن نفسه حتى خارت قواه ، وحين رأى أنه لم يعد قادرا على الاستمرار في الجهاد استجمع قواه وألقى بنفسه في النهر فدفعه سلاحه الثقيل إلى الأعماق لأنه لم يرض أن يقع أسيرا في أيدي النصارى وكان لهذا العمل أثره في نفوس المسلمين وفي نفوس النصارى على السواء وصارت الأمور في صالح المسلمين بعد هذه البطولة الرائعة ، ولو أن بطلنا هذا ظهر في فترة من فترات المد الإسلامي لكتبت بطولته هذه بأحرف من نور ، لكن الله سبحانه وتعالى سيجزيه خير الجزاء إن شاء الله على ما قدم لدينه في فترة ضعف فيها الناس جميعا .

إقبال يتحدث عنه :

تحدث إقبال عن هذا الرجل العظيم " الشيخ أحمد السرهندي " فقال : ذلك الرجل الكبير الذي نهض لصيانة تراث الدين وقد أكرمه الله تعالى بالعلم والمعرفة ، ذلك الرجل الذي لم يحن رأسه أمام الملك " جها نكير " ونفخ في الأحرار روحا وثابة من الإيمان والحنان .

الإمبراطور أكبر والدين الإلهي :

الإمبراطور أكبر إمبراطور عظيم حكم الهند في القرن العاشر الهجري وهو رجل ذو عزم أكيد وذكاء نادر وغزو وانتصار ، وقد قاد حركة تهدف إلى تغيير وجه الهند من الإسلام إلى دين جديد اخترعه الإمبراطور أكبر وأسماه الدين الإلهي وهو يدعوا إلى وحدة الأديان التي كانت الكفة فيها راجحة إلى جانب أخر بصفة دائمة ، ذلك لأن قوانين البلاط الأكبر كانت أقرب إلى الديانة الهندوكية منها إلى دين الإسلام وأكثر حماية لها .

وقد انضم إلى ذلك الإمبراطور عدد من عباقرة العلماء والمثقفين في الهند فأصبحت المؤامرة ضد الإسلام واضحة وعميقة تتولاها مملكة كبيرة وعقلية منحرفة ، وكان الناس يعلنون جهارا أن القرن العاشر قد أوشك على النهاية والقرن الحادي عشر على الأبواب وأن ألف سنة مدة كبيرة لأي دين من الأديان ، وقد قام رجال من العلماء والمثقفين ممن لم يكونوا على جانب كبير من العلم والورع وكانوا يحرصون على مناصبهم فوفروا لذلك دلائل في ضوء تاريخ الديانات وأشاعوا أن دينا لم يدن أكثر من هذه المدة وكلما مر عليه ألف سنة حل محله دين جديد وقيادة فكرية جديدة ، وقالوا أن الدين العربي قد قضى حاجته ومر على نبوة محمد ألف سنة والجيل الجديد في حاجة إلى دستور جديد وشريعة جديدة .

وما أكثر الفتن التي تنشأ من فلسفات تتحرر من قيود الدين والأخلاق ، وهذا الإمبراطور مشهور بالقوة والشكيمة لذلك فقد كانت الهند كلها ترتجف أمام سيفه الذي ذلل كل العقبات وما كان يعرف للفشل معنى حيث كان دم الشباب يجري في عروقه ويقتفي أثار آبائه وأجداده في حل المشكلات وقد خلف وراءه كتابات تشهد بعبقريته

وفرط ذكائه .

يقول الشيخ أبو الحسن الداعية الهندي المسلم : أن كل الدلائل كانت تحمل في طياتها ثورة عارمة ضد الإسلام وينبئ بأن الإسلام لم يعد له قرار في هذه البلاد ويكاد يودع أهلها ، الأمر الذي يعني أن السلطة الدينية والروحية تكاد تنتقل من أهلها على طاقات وفلسفات جديدة ، مع انتقال السلطة السياسية إلى غير أهلها .

نعم إن هذه الثورة كادت تقضي على تلك الجهود التي بذلها الغزاة المغامرون لفتح هذه البلاد منذ عدة قرون ، ومن جانب آخر كادت تضيع ثمار ذلك الجهاد الذي قام به الشيخ معين الدين الجاشتي وخلفاؤه المخلصون أولئك الذين وجهوا من داخل زواياهم إلى أرواح سعيدة دروس الإنسانية والحب والمساواة والعدالة الاجتماعية وأشرفوا على الحكومة الحاضرة دينيا وخلقيا من خارج زواياهم وهيئوا للدولة والمجتمع أفرادا صالحين أقوياء أمناء ورعين محبين للإنسانية ونفخوا في حركات البلاد العلمية والتربوية روحا جديدة .

الشيخ أحمد السرهندي :

عالم هندي يقول عنه مسلمو الهند إنه جدد الألف الثاني (٩٧١ هـ/١٠٣٤ هـ) وكان يعيش عيشة فقيرة في إحدى زوايا سرهند بالهند وقد سأل نفسه: لماذا يحرم المسلمون في هذه البلاد من أن يعيشوا أحرارا أعزاء متمسكين بشعائرهم الدينية ؟ ولماذا يضيق عليهم وحدهم مجالات الحياة ؟ وقد بدأ ذلك العالم يدحض الأباطيل والمغالطات العلمية التي عمت جميع الناس ضد الإسلام وضد بقاء الرسالة المحمدية وضد مكانة الشريعة الإسلامية ودوام السنة وأعاد ثقة الناس إليها ، وكان ذا عقل حكيم وبصيرة نافذة فلم يحاول تنظيم قوة ضد الإمبراطور أكبر فقد فطن إلى أن ذلك قد لا يكون في صالح الدعوة الإسلامية إذا أبدى خصومته له وستغلق أمامه كل طرق العمل لذلك بدأ يدعو إلى الله تعالى في هدوء ويجمع حوله المخلصين الأكفاء ويتناولهم بالتربية الشاملة التي تنجو بهم من مزالق المال والحكم وتجعلهم لا يتجهون إلى الجاه والمنزلة ، ثم بدأ يخاطب قلوب الأمراء المسلمين الذين كانوا يشغلون مناصب عالية في بلاط جهانكير وحكومته وكتب إليهم يذكرهم بمسئوليتهم نحو الإسلام الذي يمر بمرحلة خطيرة حتى يقوموا بدورهم في الدعوة إلى الله تعالى بأسلوب علمي فكري بناء وبثقة ويقين من القلب .

وقد نجحت هذه الفكرة وفي خلال عشرين عاما تغير الوضع وأصبح مسلمو الهند موضع اهتمام العالم الإسلامي كله في الروحانيات وفي علم الحديث وفي اللغة العربية التي كان تعليمها قاصرا على البلاد العربية في ذلك الوقت .

وبدأت نهضة جديدة :

وبعد أن اجتاز الإسلام في الهند هذه المرحلة القاسية بفضل جهود الشيخ أحمد السرهندي بدأت نهضة جديدة وحظيت الهند بمكانة عظيمة في خدمة العلوم الإسلامية بفضل رجال العلم والدين الذين رباهم السرهندي وظلت مصابيح العلم والتحقيق تتوقد في أرجاء البلاد الهندية واستمرت هذه النهضة العلمية ، وبعد فترة ظهر الشيخ أحمد الدهلوي الذي أسس علم كلام جديد وقام بشرح وإيضاح معنى الخلافة ، وعرض مخطط الحكم الإسلامي الصحيح الذي لم يسبق له نظير مع ما بذل من محاولات لإنقاذ الحكومة الإسلامية في الهند التي لم يكن لها بديل في ذلك الوقت ، وقام أبناؤه من بعده بنشر علوم الكتاب والسنة في هذه البلاد وإنشاء أروقة لدراسة القرآن الكريم وخدمة جليلة للحديث الشريف وإصلاح العقيدة والأعمال والتقاليد .

وقد كانت حركة الإصلاح والجهاد وإحياء السنة والخلافة حلقة متينة وقد وفقت هذه الحركة في تقديم نماذج من السيرة النبوية والحمية الدينية وتربية الإنسان وصناعة الرجال وجددت ذكرى القرون الأولى ، وقد تابعت هذه الجماعة جهودها على جبهة الدعوة والإصلاح الواسعة التي يتعذر وجود نظير لها في تاريخ الإسلام .

المدارس الدينية :

ثم جاء عهد المدارس الدينية وتأسست مدرسة دار العلوم بديوبند ومدرسة مظاهر علوم بسهارنفول ودار العلوم بندوة العلماء في لكنهو وغيرها من المدارس الإسلامية في أنحاء البلاد التي قامت على أساس الكتاب والسنة ونشر تعاليمها ، وقد تم ذلك كله بجهود مؤسسي هذه المدارس الكبار وأفاضلها المخلصين والراسخين في العلم بإصلاح العقائد والأعمال على أوسع نطاق مما أدى إلى نشأة ذوق ديني وغيرة إسلامية في الناس جميعا ، ومن أجلهم أخفق من أراد فصل الدين عن الدولة ولم تستغن جماهير هذه البلاد والطبقة المثقفة عن قيادة العلماء وتوجيهات علماء الدين فضلا عن الثورة ضدهم .

وبفضل جهود هؤلاء العلماء العلمية تمتعت الهند بمركزية دينية حتى إذا أراد

أحد في اليمن أو مراكش أو غيرها من البلاد الإسلامية أن يبدع في الحديث الشريف وينجح فيه ذهب إلى الهند وكذلك من أراد منهم أن يكمل تربيته الدينية والتزكية الدينية توجه إلى الهند ، ومن هؤلاء الشيخ خالد الرومي الذي ولد في الجزء الشمالي من العراق وأتم دراسته في دمشق وحين أراد أن يطفئ ظمأه الروحي ويقوي إيمانه بالله تعالى وبالحقائق الغيبية قصد الهند ووصل دهلي ونزل في زاوية الشيخ علي ولازمه حتى أذن له بعد تكميل دراسته الروحية بالعودة إلى بلده وأفاد الناس بعلمه وأخلاقه والحقائق الدينية في بلاد العراق والشام وتركيا ونفخ فيها روحا جديدة ما تزال لها آثارها .

تعليق :

يعلق الشيخ أبو الحسن الندوي على الأحداث المتتالية التي مر بها العالم الإسلامي وعلى الأعمال المعقودة على المسلمين في مستقبل الأيام فيقول :

لقد أطل القرن الخامس عشر الهجري على العالم كله ، وأن الأمة الإسلامية والعالم الإسلامي له حظ في هذا التراث العظيم وهذه الثروة الهائلة من العقيدة والفكر والعلم والسياسة والطبيعة والإنسان ، وهذه الحركات القومية والدول المستقلة الكثيرة والممالك الواسعة لم يكن هنالك مبرراً لليأس ولا داعي للتشاؤم لأن لديها صحيفة الله (القرآن الكريم ورسالته الأخيرة الخالدة الإسلام) الذين ينفخان في جسم الأمة النائم وقلبها الهامد روحا من حياة جديدة في كل زمان ويأتيان بالعجائب والمعجزات ، ثم أن المسلمين هم وحدهم موئل آمال الإنسانية في هذا العصر وحماة رسالة الإسلام الأخيرة وأمناء البشرية ، ولعل هذا القرن يكون نقطة تحول حاسمة ذات تأثير عميق في العالم البشري كله فلا ينبغي أن نيأس من روح الله ، فإن شفاء الإنسانية وصحة الإسلام بالغان إلى آخر مدى الساعة التي تتحرك فيها رحمة الله تعالى ويواجه العالم ثورة كبرى .

إن الحضارة الغربية قد أشرفت على الانهيار وآذنت بالأفول والزوال ، إنها لا تعيش ولا تواصل سيرها بمجرد قوتها الذاتية وجدارتها للحياة والبقاء ، بل إنها ليست في هذا المجال من تعاسة الحظ حضارة تحل محلها وتسد فراغها ، بل إن جميع الحضارات المعاصرة والقيادات الحديثة اليوم لا تعدو نوعين : إما جاهلة مقلدة وصورة باهتة للحضارة الغربية ، وإما ضعيفة هذيلة منسحبة منهزمة لا تستطيع أن تواجه هذه الحضارة أو تقف معها جنبا إلى جنب ، فإذا قامت الدولة الإسلامية والعالم

الإسلامي بصورة عامة لسدّ هذا الفراغ الذي سيحدث بعد انهيار هذه الحضارة وانسحابها عن مسرح القيادة ليردّ إليها منصب قيادة الجنس البشري وتوجيه الشعوب المعاصرة مرة ثانية، المنصب الذي لا يفوض إلا لأمة فتية قوية أبيّة تحمل كل عناصر البناء والاستمرار والتقدم والازدهار – سنة الله تعالى في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلا – .

فلينظر حكام المسلمين من أولى منهم بمنصب قيادة الإنسانية وهداية الشعوب الضالة ، ذلك المنصب السامي الذي تتلاشى عنده جميع الألقاب والشعارات والهتافات والمناصب الرفيعة والحياة الناعمة المريحة والإغراءات المادية والجنسية ، إنها سلعة غالية لا يخسر بها المشتري ولو ضحى بنفسه مائة مرة .

محمد إقبال

هو الشاعر الفيلسوف الهندي الذي ولد في سنة ١٢٨٩ م في بيت مسلم متمسك بإسلامه استمر في دراسته حتى أصبح أستاذا في الفلسفة ونال عددا من جوائز التفوق وكان أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن ثم أستاذ الفلسفة في جامعة علبكرة فكلية الحكومة في لاهور .

كان واسع العلم متواضعا محبا للحضارة الإسلامية داعيا إليها وقد ألف كتاب (دعوة الإسلام) ليبين للناس جميعا أن الإسلام انتشر بالدعوة لا بالقوة ، وقد عمل في حزب الرابطة الإسلامية بالهند ، ورأس الاجتماع السنوي في ألماباد سنة ١٩٣٠ م وكان مضرب المثل في ضبط الوقت والالتزام بالمواعيد حتى أعجب به كل من يعرفه .

وقد تعلم اللغة الهولندية ليقرأ السجلات التي تبين أن الإسلام قد انتشر في جزيرة جاوة وما يتصل بها بالدعوة إلى الله ، ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة في تركيا كتب كتابه (الخلافة) الذي يشهد بسعة علمه ونفاذ فكره .

وفي أوربا نال جائزة المحاماة في لندن واشتغل بها حتى سنة ١٩٣٤ م والتحق بجامعة كمبردج حيث درس الفلسفة ثم سافر إلى ألمانيا حيث تعلم اللغة الألمانية ثم عاد إلى لندن ودرس القانون ، وكان يلقي محاضرات في أوربا عن الإسلام وسماحته وقد نشرت محاضراته في كثير من الصحف ، ولم تعجبه حضارة أوربا التي مكث فيها ثلاث سنوات .

وقد جاء إلى القاهرة حيث التقى بكثير من علمائها وألقى فيها عددا من المحاضرات ، وكان شاعرا ملهما نشر شعره في عدد من دواوين الشعر ، وكان صاحب فكرة إنشاء دولة باكستان المسلمة ، وقد توفي في سنة ١٩٣٨ م عن ٦٥ عاما .

إقبال يهتف في المسلمين (انهضوا وأقيموا دعائم عالم جديد) :

لقد نظر الشاعر المسلم محمد إقبال حوله فوجد المسلمين يعيشون في ميدان الجهالة بينما الإسلام يأمر بالعلم ويرضون بالذل والإسلام يأمر بالعزة ، ويحيون حياة كلها فقر والإسلام يدعو إلى العمل ، لقد أصبح المسلمون مستعبدين بعد أن كانوا سادة ، وفكر إقبال في الأسباب التي أوصلتهم إلى هذه الدرجة .

فساد التوحيد :

ورأى إقبال أن أول مرض أصيبوا به هو فساد التوحيد عندهم ومظهر ذلك أنهم أصبحوا يخافون الحكام حتى أصبح هذا الخوف ضربا من العبودية وأحيانا ضربا من التأليه ، ونتيجة لذلك فإن الناس أصبحوا راضين طوعا أو كرها ، فلا يكاد يرتفع صوت باستنكار وتبع ذلك أن القانون أصبح هوى متبعا وأن العنف أصبح فريضة كما أصبحت المثل العليا مطية للأغراض والشهوات الجامعة ، ومن أعجب ما رآه إقبال الأصنام الحديثة المكونة من اللحم والدم التي أصبحت في العصور الحديثة تعبد بعد أن كان الناس يعبدون قديما أصناما من الحجارة والخشب ، يقول إقبال واصفا هذه الحالة : إنها الأصنام التي ما زال المسلمون يعبدونها حتى اليوم وإن ادعوا الإيمان بالله وأن لهذه الأصنام صورا عديدة وألوانا شتى ، ويا حبذا لو علم المسلم الذي يبتغي الهداية أن سجوده في الصلاة لله وحده خير له وأجدى عليه من هذا الشرك الحديث :

تلون في كل ثوب مناه * وشاب بنو الدهر وهي فتاة

فهذا السجود الذي تحتويه * به من ألوف السجود نجاة

الحرص على الحياة :

والداء الثاني الذي أصاب المسلمين في رأي إقبال هو أن المسلمين يخافون الموت ويحرصون على الحياة فتحقق فيهم الحديث الشريف (يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، قال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا بل أنتم يومئذ كثيرون ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت).

وإذا أراد المسلمون أن يعالجوا ذلك فلا بد من أن يعودوا إلى ذواتهم لأنها مصدر الحركة والعمل والنور والحياة ، يعودون إلى ذواتهم يدعمونها بالإيمان ويبعدونها عن الخوف والجبن والحرص ، يردونها عن طريق الغي إلى طريق الحق طريق الإسلام .

استسلام المسلم :

والداء الثالث الذي توصل إليه إقبال هو الاستسلام، فالمسلم إذا نظر إلى المجتمع الإسلامي صدمته الحقيقة وهاله الأمر الواقع لأنه لا يرى إلا الهوان الذي

يؤدي به إلى الاستسلام وترك الأمر لقضاء الله وقدره ، وبدلا من أن ينفض عن كاهله غبار الكسل ويتغلب على الصعوبات التي تقابله حتى يصل إلى المرتبة اللائقة به ، بدلا من ذلك كله يستسلم إلى الأمر الواقع ومعنى ذلك أن المسلمين تركوا التوكل الذي يجعل للمسلم الحرية والاختيار إلى التواكل الذي يجعل الناس ينسبون كل شيء إلى القضاء والقدر .

وسبب ذلك أن المسلمين قد أغمضوا أعينهم عن منابع دينهم الأولى ونسوا أن الله قد يختار أقواما لابتلائه وأن المؤمن الحق يشكر الله على النعماء ويحمده على الضراء ويصبر عليها ، ويظل يعمل ويكافح حتى يخرج من محنته ، وقد ازداد معدنه ونفاسه وجوهره قيمة وقدرا ، لكنهم رضوا بالسكون والدعة ولو عاشوا في أكناف العبودية وخمول الذكر ، وقد عادوا بين فريقين فريق أصبح يائسا فسدوا أذنيه عن كل نداء للعمل وفريق آثر البعد عن الحياة يعبد الله في خلوته المحدودة .

وقد صرخ إقبال في هؤلاء الواهمين ذوي الأفاق الضيقة ليعطيهم درسا في أن من لم يذق طعم الآلام لا يستسيغ حلاوة الراحة :

إن حباب خمرة الآمال لا * يرقص إلا فوق أمواج الألم

والله في حكمته علمنا * أن انشراح الصدر قبله ألم

آلامنا إلى العلا أجنحة * تعلو بها فوق مطارات النسور

الروح سر والحياة ظلمة * وشعلة الآلام للأرواح نور

أما الذين هربوا من ميدان المعركة وآثروا السلامة فقد وجه إليهم قوله :

خلا الصوفي من حرق وكد * شراب " ألست " معذرة البطالة

وفر إلى ترهبه فقيه * يرى في الشرع معترك البسالة

إذا خشي الرجال وغي حياة * فتلك هي الهزيمة لا محالة

يقصد الصوفي الذي يحتج بالآية (ألست بربكم ؟) .

وهكذا يشخص لنا إقبال بعض أمراض المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه ليرسم لنا الخطة السليمة لعلاجه من مرضه وسيره بعد ذلك في الطريق السليم الذي يوصله إلى هدفه فلا بد من عودة المسلم إلى توحيد الله تعالى وحده لا شريك له ، ولا بد من العودة إلى العلم ، ثم لا بد من أن يحرص المسلم على الموت حتى توهب له الحياة،

ولا بد من أن يفحص الثقافة الغربية ليأخذ ما يفيده منها ، وبذلك ينقذ المسلمون أنفسهم مما هم فيه كما ينقذون غيرهم من الهوة التي يوشكون على التردي فيها .

موقفه من ثقافة الغرب :

وإقبال العالم المؤمن جاب أوربا ورأى ما في جامعاتها ودرس ثقافتها وهاله ما رأى من استسلام المثقفين من المسلمين للثقافة الغربية وأخذوها دون فحص غير مراعين معتقداتهم الدينية أو ظروفهم البيئية ، وكان من نتيجة ذلك شيوع تيارات الإلحاد وانتشار موجات الانحلال في البلاد الإسلامية ، لقد خيل للمسلمين أن كل ما يأتي من الغرب نافع وجميل سواء أكان ماديا أم غير مادي ، واندفعوا اندفاع الأعمى في تقليد الحضارة الغربية وأوشكوا أن ينسوا مطالب الروح مع أن الإسلام يوفق بين المادة والروح والعاطفة والعقل ، وفي ذلك يقول إقبال :

في الغرب العقل مصدر الحياة * وفي الشرق العاطفة قوام الحياة

وبواسطة العاطفة يحيط العقل بالحقائق :

أيها المسلمون انهضوا * وأقيموا دعائم عالم جديد

بالتوفيق بين العقل والعاطفة * وبين المادة والروح

روجيه جارودي

الفيلسوف الماركسي الذي أسلم

يحذر المسلمين من الغرب

روجيه جارودي دخل في الإسلام عن اقتناع بعد دراسة طويلة للإسلام وللفلسفات الغربية وللأديان المختلفة وهو يحذر الغرب مما يدبره للإسلام ، وللمسلمين في جميع البلاد ويقول في ذلك : إن من أهم ما قام به الغرب في البلاد الإسلامية محاولة إدخال المسلمين في الأفكار الغربية وقد نجح في ذلك إلى حد كبير ، وكان من نتائج ذلك أن أصبح الكثيرون من أبناء المسلمين يتحدثون بلسانه .

وهو يقول عن الحروب الصليبية في كتابه (مبشرات الإسلام) : لقد اختلقت الحروب الصليبية صورة مبغضة للدين الإسلامي في الغرب مثلما سعى رجال الدين النصارى والمستشرقين للتشهير به .

حركة الاستشراق :

وقال جارودي عن الاستشراق لم يكن الاستشراق حركة نزيهة منذ البداية إذ كان الهدف منه تنفيذ مشروع يرمي إلى إدخال المسلمين في النصرانية ، وأسهم كذلك في بناء أسس لمشروع الأحكام التعسفية التي جعلها الغرب ذريعة لاستغلال الشعوب الأخرى لهذا لم تتم دراسة الإسلام في أوربا من أجل الوقوف على حقيقته بل أهتم به المستشرقون لأغراض الصراعات الأيدلوجيه .

لماذا غزا نابليون مصر ؟ :

ويتساءل جارودي عن سبب غزو نابليون لمصر وما الذي ترتب على هذا الغزو ؟ ويهتم بالنتائج فيقول : إن غزو نابليون لمصر فتح صفحة جديدة في العالم الإسلامي وكان من نتائجه ظهور تيارين :

أ — تيار العصرية : الذي كان يدعو أنصاره إلى محاكاة الغرب ويستعد لاستيراد أمراضه وعلى رأسها الوطنية بعد أن اصطنعت أوربا الحدود المزيفة المفتعلة ، وفي المجال السياسي تعني العصرية قيام نظام برلماني وهو نظام قد لا يكون مناخ العالم الإسلامي صالحا بالضرورة ، وفي المجال الاقتصادي تعني العصرية اندماج الدول

الإسلامية في السوق الغربية دون إعطائها أدنى فرصة لمناقشة الغرب بل تبقى إلى الأبد زبونة وعالة عليه ، وفي دنيا الثقافة تهدف العصرية إلى تبني فلسفة الغرب الهادفة إلى تكثيف القبض على الطبيعة والإنسان ، ولا تعني العصرية سوى تثبيت نمط في الحياة مقتبس من شعوب أخرى خيرا كان أو شرا وذلك استجابة لحاجات الأجانب .

ثم يعقب جارودي على ذلك بقوله : وقد أدى هذا التيار بالمسلم إلى أن أصبح جسما غريبا عن نفسه وأهله وتاريخه وثقافته ومصيره الخاص ، فما يطلبه أنصار هذا التيار من العالم الإسلامي هو نقل منوال التطور في الغرب بحذافيره أي العودة إلى الوراء نحو قرن ونصف قرن .

ب — تيار التقليد : ويرى جارودي أن التيار المعاكس للعصرية هو تيار التقليد الذي يقول فيه : (إن الغرب مسئول عن حركة التقليد وتطرفها في الدول الإسلامية) ويرى مفكرنا أن الأمر لا يتعلق بمصير المسلمين وحدهم في هذه الحياة وإنما يتعلق بمصير الغرب أيضا ومصير العالم كله .

الحوار بين الحضارات :

وقد اتجه الغرب أخيرا إلى إجراء الحوار بين المسيحية والإسلام ، ويرى جارودي أن هذا الحوار محكوم عليه بالفشل إلا إذا غير الغرب أسلوبه ، وهو في ذلك يقول لبني جنسه محذرا إياهم من عواقب ما يقومون به: إن الحوار محكوم عليه أن يسلك طريقا مسدودا إذا ظلت عقيدة أحد أطرافه غير مصقولة من صدا قرون السيطرة والاضطهاد ، وإن ما يسمى بالنمو لم يكن إلا نماء للتأخر فإنه لا يأتي نمو عدد قليل من الدول دون أن يتم ذلك على حساب دول أخرى فقد تم نهب المصادر الطبيعية والبشرية لثلاثة أرباع العالم ، وإن أكبر افتراء يجب تنفيذه وفضحه هو الزعم القائل أنه لا بد من اقتفاء أثر الغرب إذا ما أراد العالم تحقيق تقدم اقتصادي، ومن المسلم به أن تطور أوربا الغربية ولد التخلف وضاعف من اتساع رقعته في الدول النامية ، لهذا يكمن الحل في انتهاج أسلوب في التنمية يعمل على تثبيت قواعد نظام عالمي للاقتصاد .

دول البترول :

وفيلسوفنا يوجه كلامه إلى الدول المنتجة للبترول ويطلب منها أن تتخلص من كونها مجرد ممونة للمواد الأولية وزبونة للمؤسسات الاقتصادية الأوروبية فتصبح منشئة لسوق مشتركة بين الدول الإسلامية والعالم الثالث ، وبهذه الوسيلة يعود الإسلام

مصدرا هاما يقتبس منه العالم بأسره ما يحتاج إليه في مجالات الاقتصاد والثقافة والعلم ولدى المسلم الاستعداد الطبيعي لحمل هذه المسئولية إذ أن معارضة النصراني للإسلام لا تقابل بالمثل في الديانة الإسلامية حيث يتحدث القرآن باحترام بالغ عن المسيح وأمه ، قال تعالى : (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) المائدة : ٤٦

معنى هذا التسامح :

ويقول جارودي : إن هذا التسامح لا يعني أن المسلم يقبل بفكرة الصلب أو التجسيد والتثليث إذ ينبذ سمو الإله كل حديث عن بن أدم للخالق فوحدانية الله تعالى هي محور الإسلام وهو مبدأ يحول دون عبادة الطواغيت المنتشرة في المجتمع الأوربي ، ويعدد الطواغيت فيقول (طاغوت النمو والتقدم .. طاغوت العلمانية والتقنيات .. طاغوت الفردية .. طاغوت الوطنية) ويقول : الإسلام يستعيض عن كل ذلك بـ " لا إله إلا الله " .

أمنيته :

ويتمنى فيلسوفنا أن يرى الأمم الكبرى في الغرب ، وقد أنشأت في الأمكنة نفسها التي تم فيها لقاء الحضارات .. قرطبة وباريس .. مراكز للقاء والبحث والتكوين والتوزيع لما يحمله إلينا الإسلام اليوم ، وما يقوله لنا وما نقوله له نحن الغربيين لتحقيق هذه الأمنية لا مندوحة من تغيير طبيعة العلاقة بين الإسلام والغرب ، لقد كانت العلاقة بينهما منذ النهضة الأوربية علاقة حرب واحتلال ومالك ومملوك و سيد ومسود وفي حين تخالف تعاليم الإسلام هذه المبادئ الخاطئة فهي تعاليم من شأنها أن تساعد على اكتشاف بعد عالمي للإنسان الذي يحمل في ذاته مسئولية على مستوى الوجود في العالم ، قال تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان) الأحزاب : ٧٢

لكن ذلك لم يسجن المسلمين أنفسهم في ماضيهم وعرفوا كيف يحلون مشاكل العصر الحاضر في إطار المجتمع الذي أسسه محمد ﷺ وأدركوا أن استمرار الوفاء لذلك الماضي يكمن في نقل فقه تراث الأسلاف لا على شكل رماد ولكن على هيئة لهيب ، عندئذ يتأتى الانفتاح ليس للمسلمين فحسب ولكن على نطاق عالمي .

الشيخ محمد الغزالي

رؤية عن قرب

الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى عالم متميز في علمه وفي رؤيته للأمور وفي خلقه وفي دعوته إلى الله على بصيرة وفي كتاباته ، وقد أحس العالم كله بذلك وبخاصة وأنه سافر إلى عدد كبير من دول العالم محاضرا أو مناظرا أو مشتركا في ندوات ، وقد اهتمت به الدول كلها في حياته وبعد انتقاله إلى رحمة الله تعالى ، ولكن للأسف لم يأخذ وضعه اللائق به في الإعلام المصري — لا في حياته ولا بعد مماته — ولو كان المتوفى ممثلا أو مغنيا أو علمانيا لتغير الوضع .

وفي بداية حياتي وأنا طالب بمعهد القاهرة الديني كنت أذهب دائما إلى مسجد عذبان بالعتبة الخضراء لأستمع إلى شيخنا الجليل ثم إلى جامع عمرو بن العاص وإلى الجامع الأزهر ، وكنت استمع إلى محاضراته وندواته وأتتبع كتاباته في إعجاب محاولا أن أقتدي به في كلامه وفي خطبه وفي سلوكه كما كنت أرى ، ثم أتاحت لي الظروف أن أتعرف عليه حين ذهبت مدرسا في كلية التربية بجامعة قطر ، وكان هو أستاذا زائرا في كلية الشريعة ، وقد عرفت الكثير من صفاته ومن أخلاقه في فترة امتدت عدة سنوات .

كان عالما قويا في علمه ، وكانت ثقافته واسعة ، وكان متواضعا جم التواضع ، كان يقول الحق ولو على نفسه لا يخشى في الله لومة لائم ، وكان يرجع إلى الحق إذا ما رأى ذلك .

كان فارسا مغوارا في الدفاع عن دين الله تعالى ضد العلمانيين والشيوعيين والرأسماليين الذين يريدون أن يوظفوا الدين لمصالحهم الخاصة، كان يحفظ الأشعار ويرددها دائما وبخاصة إذا كان أحد المتحدثين في الإذاعة، يقول شعرا قديما أو حديثا وكان دائما يردد العبارة الآتية: "رحم الله الشيخ حسن البنا لقد كان أعلم بنفسي مني"، كان يقرأ في سرعة رائعة ويفهم ما يقرؤه تماما ويناقش فيه، وقد كتبت مرة في صحيفة قطرية مقالا عن كتاب له، فقرأ المقال في سرعة هائلة ثم بدأ يناقشني فيما كتب .

وقد ألقى مرة محاضرة في جامعة قطر ناقش فيها أحد العلماء وذكره بالاسم ، وطلبت مني الجامعة أن أعد المحاضرة للطبع فاتصلت به هاتفيا ، وقلت له : أرى أن

أكتب قال بعض العلماء كذا وكذا بدلا من ذكر الاسم فقد يثير ذلك مشكلات ، فقال لي في هدوء وتواضع : أنت أخي وتفهم ما أريد فافعل ما تراه صوابا بدون أن ترجع إلي ولكني مع ذلك كنت أرجع إليه في كل ما أرى أنه يحتاج إلى تغيير .

تدريب للمعلمات :

وكانت وزارة التربية والتعليم في قطر تضع برنامجا لتدريب معلمات العلوم الشرعية ووضع اسم الشيخ الغزالي ليلقي إحدى المحاضرات ولكنه اعتذر لظروف خاصة فطلبت مني الوزارة أن ألقي المحاضرة بدلا منه ، فقلت في نفسي : أنا ألقي محاضرة بدلا من الشيخ الغزالي العالم العملاق ، ولكني استجبت وألقيت المحاضرة واعتذرت للشيخ الغزالي ، فقال لي في هدوء وتواضع جم : أنت أولى مني بهذه المحاضرة لأنك معلم وتتعامل مع المعلمين طوال حياتك ، فشكرته ورجوت الله تعالى أن يبارك فيه وأن يمد في عمره ليستمر في أداء رسالته .

عملاق بين الأساتذة :

كان هناك عدد كبير من أساتذة كلية التربية بجامعة قطر ثقافتهم غربية واتجاهاتهم غربية ، وقد لحظت هذا في المحاضرات والندوات فأردت أن أريهم الجانب الإسلامي من الثقافة والمفاهيم والأخلاق بأسلوب غير تقليدي ؛ فاتفقت مع شيخنا على أن أدعوهم في مناسبات للعشاء على أن يكون معهم ، وقلت له : أنا أعلم أنك تكتفي بالغذاء ولا تتناول العشاء ، ولكن الطعام بالنسبة لك لا يساوي شيئا فهو موجود في كل مكان والدعوة إلى الغذاء تأخذ وقتا قصيرا ، والدعوة إلى العشاء يمكن أن تستمر ساعات طويلة ويمكن أن تتحدث إليهم في كل ما تريد وفي كل ما يريدون فوافقني على ذلك ، وكنت أدعوا على العشاء حوالي ثلاثين أستاذا وكانوا يستمعون إليه في إكبار وإعجاب ويناقشونه مناقشات إيجابية بناءه ، وقد أثرت فيهم هذه الجلسات تأثيرا طيبا في فهم الإسلام من أصوله وفي المقارنة بين المفاهيم الإسلامية وبين المفاهيم الغربية .

مقابلة السافرات من المذيعات :

وفي مرة أخذت منه مذيعة سافرة حديثا عن وضع المرأة في الإسلام وكانت مناقشة طيبة هادفة ، ولكن بعض الشباب اعترض على ذلك فأجبت بأن هذا يعطي درسا طيبا للمذيعات وللمشاهدين وهذا ما نريده ، وقد أوصلت إليه هذه الرسالة ، فقال لي : وما رأيك أنت ؟ فقلت له : إن هذا باب طيب يجعل المفاهيم الإسلامية تصل إلى الناس

جميعا ومع تكراره سيجعل المذيعة محجبة والالتزام الإسلامي موجودا ، واتصل به بعض الشباب هاتفيا ، وقال في عنف : كيف تلتقي مع مذيعة فاجرة ، فقال له : إنك بهذه العبارة تستحق الجلد لأنك قذفت امرأة مسلمة ولم تستطع أن تأتي بالدليل ، فأغلق الشاب الهاتف وكان ذلك درسا له .

وفي مصر - في ذلك الوقت - كان رجال الأمن يحيطون به إحاطة السوار بالمعصم وكانوا يعملون على منعه من خطب العيد وكانوا يرسلون إليه بعض رجال الأمن وبعض العلماء ليقنعوه بذلك ، ولكنه كان يصر على إلقاء الخطبة وكانوا يذهبون إلى ساحة مسجد السيدة زينب مبكرين ليملؤوها بالمياه حتى لا يصلي فيها أحد ، ولكنه كان يلقي خطبته من داخل المسجد إلى أن انتقل إلى إلقاء خطبة العيد في مسجد محمود بالمهندسين ، وكان الأمن يوقفه عند كل سفر إلى الخارج كلون من ألوان المضايقات ، فما وهن وما ضعف وما تأثر وكانت الشرطة السرية أمام بيته تحاصر كل من يزوره وتحقق معه ، وما أكثر ما لقي زواره من تحقيقات في مباحث أمن الدولة .

في الجزائر :

كان رئيس الجمهورية السابق الشاذلي يحبه ويحترمه وكان يذهب إليه في المطار ليستقبله بنفسه وكأنه رئيس دولة، وقال له: إن الجزائر كلها بيتك وليست وطنك فقط، وقد أنشأ الجامعة الإسلامية بالجزائر وأشرف عليها وطلب منه رئيس الجمهورية أن يختار هيئة التدريس والإداريين، وطلب مني ونحن في قطر أن أسوي حالتي وأن أذهب معه إلى الجزائر ، وقال لي في أسلوب دعابي : " أنا أتعكز عليك وأنت تتعكز علي " .

وبعد عودتنا إلى القاهرة وجد وفدا جزائريا يختار هيئة التدريس والإداريين ، ثم عرف السبب في هذا التحول وهو أن العلمانيين والشيوعيين قالوا لرئيس الجمهورية : (إن معنى ترك كل شيء للشيخ الغزالي هو أن تتحول الجامعة إلى شعبة من شعب الإخوان المسلمين) وتضايق من هذه المفاجأة ، وقال لي : لن أذهب إلى الجزائر بعد ذلك ، فقلت له : هذا ما يريدونه ولكن مصلحة الدعوة الإسلامية تقتضي أن تذهب إلى الجزائر ، فإن لم تستطع أن تفعل شيئا إيجابيا فإنك تستطيع أن تمنع سلبيات كثيرة ، وقد وافقني على ذلك وذهب إلى الجزائر وكأن شيئا لم يكن ، وقد بلغ من شدة حبه للدعوة أنه كان يحرص على حضور كل المؤتمرات حتى في أثناء مرضه — ومن ذلك أنه أصيب بمرض في القلب — وبعد أيام قليلة من إصابته دعي إلى مؤتمر بالجزائر فذهب إليه وهو متعب ونزل من الطائرة التي أقلته ونقل إلى المستشفى ولم يستطع أن

يحضر المؤتمر .

إصراره على الدعوة :

وفي السنوات الأخيرة من حياته أصيب بعدة أمراض - إلى جانب مرض القلب - وكان لا يقوى على المشي ولكنه كان مصرا على حضور جميع المحاضرات والندوات والتحدث فيها والتعليق عليها ، وكان يصر على أن يحمل على المنصة ولا يرضى بأن يأتي إليه أحد بمكبر الصوت .

وقد رأيته عدة مرات في قاعة المحاضرات بمسجد الفتح بميدان رمسيس بالقاهرة حيث كان يصعد تسعين درجة إلى قاعة المحاضرات مستندا على شابين وقد خلع حذاءه وأمسك به شاب ثالث ، وكان يصر على الذهاب إلى المنصة ليعلق على المحاضرة التعليق المشبع ، ثم ينزل مستندا على الشابين تسعين درجة ، ثم يدخل إلى السيارة التي تنقله إلى بيته ، وفي بيته يصعد ثلاثة طوابق مستندا على الشابين ، ومع هذا كله فقد لبى دعوة السعودية في مؤتمر الجنادرية بالرياض ، ولم يستطع أن يكمل دوره في الندوة الثقافية لحالته المرضية ، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى حيث دفن بالبقيع مع الصحابة والتابعين .

وقد لاحظت عناية الإعلام السعودي بجميع أنواعه إلى جانب عناية الحكومة السعودية الرائعة بشيخنا في حياته وبعد مماته على عكس الصورة في مصر سواء أكان ذلك من أجهزة الإعلام أم من المسئولين ، والمهم أنه كان لا يعبأ بشيء من ذلك ، إنه كان يعمل لله تعالى ويدعو إلى الله على بصيرة لم تهمه المراكز الأدبية ولا المكاسب المادية ولا رضى المسئولين .

إن الذي كان يهمه هو إرضاء خالقه سبحانه وتعالى لأن الحساب سيكون بيد الله، قال تعالى (**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**)، أما الحياة الدنيا فما هي إلا متاع الغرور وقد كان رحمة الله تعالى يلتزم دائما بقول الله تعالى : (**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين**) رحم الله شيخنا الراحل وجعل الجنة مثواه وجعل علماؤنا يسيرون على منهاجه في الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة ، وفي إرضاء الله تعالى وحده فهو الخالق الرازق المحي المميت الذي يبعث في النفس الطمأنينة والراحة والسكون ويثيب في الآخرة بجنة عرضها السماوات والأرض .

ولمثل هذا فليعمل العاملون ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

الخاتمة

وأخيرا فإني أحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقني إلى إلقاء الضوء على هذه الشخصيات الإسلامية التي كانت لها دور واضح في نشر الدعوة الإسلامية في جميع أنحاء العالم ، وفي المحافظة على البلاد الإسلامية من أعدائها في فترات قاسية من فترات العالم الإسلامي .

والمسلمون الآن في فترة من أحرج الفترات التي مروا بها على مدى التاريخ لأن الأعداء يحيطون بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم إحاطة عسكرية وسياسية واقتصادية وثقافية ، كما أنهم يعملون على تفرقة الأمة الإسلامية تفرقة شاملة ، وعلى جعل العالم الإسلامي يسير على منهج الغرب في كل شئون الحياة ، بل وإلى جعل الدويلات الإسلامية يحارب بعضها بعضا، إلى جانب انحناء الجميع أمام أعداء الإسلام .

ولهذا فإننا في حاجة إلى علماء وقادة ومناضلين جادين يعملون على إنقاذ العالم الإسلامي مما هو فيه ، وبذلك يمكنهم أن ينشروا بين الناس جميعا في أنحاء الأرض العدل والأمن والمساواة ، وأن يدعوا الناس جميعا إلى فهم الإسلام فهما كاملا حتى يسيروا في طريق الأمن والأمان .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

علي القاضي

الفهرس

كتب صدرت للمؤلف

١- أضواء على التربية الإسلامية .
٢- وظيفة المرأة في المجتمع الإنساني .
٣- جامعات يوسف .
٤- الحدود في الإسلام .
٥- دور المرأة ومكانتها في الحضارات المختلفة عبر التاريخ .
٦- ماذا تعرف عن بديع الزمان النورسي .
٧- علم الإنسان في القرآن الكريم .
٨- الحضارة الغربية تسير إلى الهاوية .
٩- الإسلام يدلل المرأة .
١٠- الفن بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى .
١١- معارك رمضانية فاصلة في تاريخ الإسلام .
١٢- أضواء على الغزو الثقافي للمجتمعات الإسلامية .
١٣- مفاهيم إسلامية .
١٤- أوسمة إلهية .
١٥- لماذا أسلمنا ؟ .
١٦- شخصيات إسلامية متميزة .

كتب تحت الطبع

١- المنهاج الإسلامي لحل المشكلة التربوية في العالم الإسلامي .
٢- الحكمة في التشريعات الإسلامية .
٣- المدينة المنورة التي هاجر إليها الرسول ﷺ.
٤- مكة المكرمة المدينة التي ولد فيها الرسول ﷺ.
٥- أوسمة نبوية .
٦- الإتكيت (فن الذوق) .
٧-حضارة الإسلام حضارة إسلامية شاملة .